التاريخ السياسى لمدينة سبتة
منذ القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري
(١٠ ـ ١٣م)

دكتـــور

رضـــوان البارودى

أستاذ التاريخ الاسلامى والحضارة المساعد

كلية التربية ـــ كفر الشيخ ـــ جامعة طنطا

مقدمة تاريخية عن مدينة سبتة منذ الفتح الاســلامى حتى بداية القرن الرابع الهجرى :

تحتل مدينة سبتة[1] Ceuta (بفتح السين وسكون الباء) مكانة

---

(١) هناك عدة تفسيرات لاسم مدينة ســبتة ، فهناك من يذكر ان الرومان كانوا يطلقون عليها اسم سيبتاس او سيفتاس وانها كانت عاصمة لولاية موريتانيا الطنجية . Mauretania Tingana

(راجع الحسن الوزان المعروف بليون الافريقى : وصف افريقيا ، ترجمه عن الفرنسية د. عبد الرحمن حميدة . منشورات جامعة الامام محمد ابن سعود الاسلامية . الرياض ١٣٩٩هـ ، ص٣١٨) . ولكن ليون الافريقى لم يذكر السبب فى اطلاق هذا الاسم عليها . ومن المرجح أن يكون هــذا الاسم (سيبتاس) مشتق من الكلمة اللاتينية « ســبتوم او ســبتوم » Septum بمعنى « سبعة » ، لأن سبتة ـــ كما يذكر الادريسى ـــ عبــارة عن سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض معمورة (راجع : الشريف الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . تحقيق مجموعة من العلماء . نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . بدون تاريخ جـ٢ ص٥٢٨) . ولكن =

مهمة فى تاريخ المغرب والأندلس فى العصر الوسيط ، وذلك لما تتسم به من موقع استراتيجى ، اذ تقع فى أقصى شمال المغرب الأقصى ، كما أنها تطل على منطقة جبل طارق وتتحكم فى الناحية الجنوبية لهذا المضيق • وفضلا عن ذلك ، فانها تتمتع بحصانة طبيعية جعلتها من أمنع مدن المغرب ، « وهى مدينة حصينة لأنها ضاربة فى البحر داخلة كدخول كف على زند »[٢] ، وتطل سبتة على البحر المتوسط الذى يحيط بها شرقا وجنوبا وشمالا ، وليس لها طريق للبر الا من الناحية الغربية[٣]، كما يحيط بها من الشرق جبل كبير يسمى جبل الميناء •

ومن هنا نرى أن المدينة محصنة تحصينا طبيعيا ضد من يروم الاستيلاء عليها • وقد أشاد أحد القادة المغاربة وهو القائد موسى بن أبى العافية بحصانة هذه المدينة فى رسالة بعث بها للخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر فقال « ان سبتة قد كفيت مؤنته من يقصدها فلا

=

الادريسى — ومعه البكرى — يعطينا تفسيرا آخر لمعنى هذا الاسم (سبتة) فيقول ان مدينة سبتة سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة والبحر يطيف بها من جميع جهاتها الا من ناحية الغرب ، والبحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ولا يبقى بينهما الا اقل من رمية سهم . (راجع : الادريسى : المصدر السابق ونفس الصفحة ، ابو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر البارون دى سلان الجزائر ١٩١١ ص١٠٣) ويفهم من نص الادريسى ان اسم المدينة مشتق من الفعل سبت بمعنى « قطع » فيقال سبت الشىء اى قطعه ، وذلك على اعتبار أن مدينة سبتة جزيرة منقطعة فى البحر . أما ابن سعيد فيذكر انها سميت سبتة نسبة الى سبت بن نافث ابن نوح (راجع المقرى : نفح الطيب من غصن اندلس الرطيب نشر د. احسان عباس . بيروت ١٩٦٨ جـ١ ص١٢٥) والراجح انها سميت كذلك كما ذكر ليون الافريقى اشتقاقا من الكلمة اللاتينية سبيقاس •

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان : طبع بيروت : مادة سبتة جـ٣ ص١٨٢ .

(٣) الادريسى : نزهة المشتاق : جـ٢ ص٥٢٨ — مؤلف مغربى مجهول : الاستبصار فى عجائب الامصار فى عجائب الأمصار . تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد . الاسكندرية ١٩٥٨ ص١٣٧ .

يصل اليها عدو ، لان البحر أحاط بها ، والوعر حولها قد تكفلها ، فلاموال تنفق عليها لغير فائدة »[٤] . وقد أطلق على سبته فى المصادر التاريخية اسم « فرضة المجاز من بلدة العدوة »[٥] . وتقل العدوتين ، ولعل ذلك راجع الى أن المسافة التى تفصلها عن الشاطىء الأندلسى بسيطة جدا ، وهذا ما يؤكده الجغرفى الاندلسى العذرى اذ يقول : « والمسافة بين جبل طارق ومدينة سبتة قريبة جدا يرى الناس سورها ودورها ، ويرون بياض ثياب القصارين بها ، وتتحرك السفن من مرسى الجزيرة الخضراء عند بزوغ الشمس فلا تنفع قدر رمحين الا وقد رسيت بمدينة سبتة »[٦] .

ويمكن القول أن قرب مدينة سبتة من الشاطىء الأندلسى قد جعل تاريخها فى مختلف العصور يرتبط بتاريخ بلاد الأندلس وخاصة فى العصر الاسلامى ، حيث كانت سبتة معبرا لانتشار الحضارة الأندلسية الى بلاد المغرب ، ولذلك امتازت سبتة بطابع أندلسى فى مظهرها وثقافتها بل وأحيانا فى وضعها السياسى .

واذا حاولنا أن نلقى نظرة سريعة على تاريخ سبتة منذ خضوعها للمسلمين حتى بداية القرن الرابع الهجرى (١٠م) نقول أن المسلمين قد حاولوا فتح سبتة أثناء حملة عقبة بن نافع الفهرى الكبرى على بلاد المغرب خلال ولايته الثانية على المغرب (٦٢ — ٦٤ هـ / ٦٨٢ — ٦٨٤م) ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك نظرا لحصانة المدينة ومناعتها . ولم يعاود المسلمون مهاجمتها الا فى أيام ولاية موسى بن نصير للمغرب

---

(٤) ابن حيان : المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس ، الجزء الخامس نشر بدرو شالمتا وآخرون ، نشر المعهد الاسباني العربي للثقافة — مدريد ١٩٧٩ ص ٣٧١ .

(٥) ابن حيان : نفس المصدر ص٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٦) العذرى : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك الى الممالك ، نشر الدكتور عبد العزيز الاهوانى . صحيفة معهد الدراسات الاسلامية . مدريد ١٩٦٥ .

(٨٦ ــ ٩٦هـ / ٧٠٥ ــ ٧١٤ م) • وكان موسى بن نصير قد تمكن من اخضاع المغرب الأوسط لحكم المسلمين ، وعمل على استكمال الفتوحات الاسلامية فى ولاية طنجة التى تشمل مدن مضيق جبل طارق على العدوة المغربية (سبتة وطنجة) بالاضافة الى بلاد السوس الأدنى التى تقع خلف مدينة طنجة • وقد تمكن موسى من اخضاع السوس الأدنى ومدينة طنجة حيث أقام بها حامية عسكرية مع ولده مروان ثم استبدله بقائده طارق بن زياد ، ولم يبق خارجا عن سلطان المسلمين فى هذه المنطقة سوى مدينة سبتة التى كان يحكمها القائد يوليان[٧] • وقد ساعد تالظروف المسلمين فى ضم مدينة سبتة الى دائرة نفوذهم والانطلاق منها لغزو بلاد الأندلس[٨] • وقد أصبحت سبتة احدى

---

(٧) اختلفت الآراء حول شخصية هذا القائد الذى تذكر المصادر أنه كان السبب وراء دخول العرب اسبانيا ، فالبعض يذكر انه من القوط الغربيين ، فى حين يرى البعض الآخر انه رومى أى بيزنطى . وهناك من يقول انه بربرى من قبيلة غمارة ، وفريق رابع يذهب الى انه فارسى ، ونظرا لشدة الاختلاف حول اصل هذا القائد انكر فريق من الباحثين وجود هذه الشخصية وذكر أنها من صنع خيال العرب . ولكن يبدو أن يوليان هذا كان واليا بيزنطيا على اقليم موريتانيا الطنجية التى كانت تشكل جزءا من ولاية طنجة البيزنطية . راجع : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق ابراهيم الابيارى . القاهرة : ١٩٨٢ ص٣٣ ــ ٣٤ ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ج. س. كولان وليفى بروفنسال . بيروت ١٩٨٠ ج٢ ص٥٥ ؛ ابن خلدون : العبر (طبعة بولاق ١٢٨٤هـ) ج٤ ص١٨٥ . ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، القاهرة ١٩٦٦ : ترجمة ٢٧٠ ص٨٦ . انظر كذلك : حسين مؤنس : فجر الأندلس : القاهرة ١٩٥٩ ص٥٣ ؛ احمد الطوخى : ابناء غيطشة ويليان فى الأندلس. الاسكندرية ١٩٨٩ ص٣٣ ــ ٣٥ .

(٨) عن الظروف التى أدت الى انضمام يوليان الى المسلمين وغزو بلاد الأندلس راجع : مؤلف مجهول : اخبار مجموعة فى فتح الأندلس . نشر اميليو لافونتى اليكانترا . مدريد ١٨٦٧م ص٥ ــ ٧ ، ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص٢٩ ــ ٣٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٦ ــ ٨ . كذلك انظر : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس . الاسكندرية . بدون تاريخ ص٦٦ ــ ٨١ .

المدن التابعة لولاية المغرب ويتولى حكمها عامل أموى يتبع والى المغرب المقيم بالقيروان • ولكن سبتة لم تلبث أن وقعت تحت سيطرة ميسرة المطغرى زعيم الخوارج الصفرية بطنجة وذلك فى نهاية عصر الدولة الأموية • وقد ثار ميسرة ضد السيادة الأموية وذلك عام ١٢٢هـ/ ٧٤٠م ، وقد شاركته قبيلة غمارة البربرية فى الاستيلاء على سبتة ، وفى نفس الوقت وفدت على سبتة جالية أندلسية كبيرة من أهل قلسانة[٩] هاجروا اليها أيام الجدب الذى حل ببلاد الأندلس واستمر من عام ١٣١ /٧٤٨هـ حتى ١٣٦/٧٥٣م[١٠] • وقد خضعت سبتة فى أعقاب انتهاء ثورة ميسرة المطغرى لسيطرة قبيلة غمارة وزعيمها ما حكس (أو ما جكن) ، فقد ذكرت المصادر أن ماحكس كان مشركا وأنه دخل سبتة بعد خرابها على يد بربر طنجة ، وقد أسلم ماحكس بعد أن دخل سبتة وأخذ فى تعميرها هو وجال قبيلته وأنه بقى بها دهرا ، وعلى الرغم من أن المصادر التى بين أيدينا لم تحدد تاريخا لذلك ، الا أننا نرجح أن ذلك حدث فى منتصف القرن الثانى الهجرى تقريبا • ومن المحتمل أيضا أن يكون ماحكس هو الذى بايع الأدارسة واعترف بسلطانهم ، فقد ذكر ابن أبى زرع أن قبيلة غمارة كانت من القبائل المغربية التى بايعت الامام ادريس الثانى امام الأدرسة فى فاس عام ١٨١هـ / ١٨٠٤م • كما كانت سبتة من المدن التى ولاها الامام محمد بن ادريس الثانى لأخيه القاسم باشارة من جدته كنزة عقب وفاة

---

(٩) قلشانة او (قلسانه) Calsena : احدى مدن كورة شذونة جنوب غرب اسبانيا وهى مدينة سهلية تقع على وادى لكه . ويذكر الحميرى انه يعمل بها ثياب تعرف بالقلشانية مخترعة الصنعة غريبة العمل . راجع : عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار . تحقيق د. احسان عباس . بيروت ١٩٧٥ ص٤٦٦ .

(١٠) البكرى : المغرب ص١٠٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨ .

والده الامام ادريس الثاني عام ٢١٣هـ / ٨٢٨م[١١] . وقد ظل ماحكس حاكما على سبتة فترة طويلة — برغم تبعية بلاده للادارسة — فلما توفى خلفه ابنه عصام الذى تنسب اليه دوله بنى عصام بسبتة ، وعقب وفاة عصام تولى ابنه مجبر أمر المدينة ، ولم يزل واليا عليها حتى مات فوليها أخوه الراضى الذى أشادت المصادر بحكمته وعدله ، وهـذا ما ألمح اليه ابن عـذارى بقـوله أنه كان يحـكم المدينة برأى فقهاء الأندلس[١٢] . ولم يزل الراضى حاكما على سبتة حتى استولى عليها أمويو الأندلس عام ٣١٩هـ/٩٣١م[١٣] . والواقع أن تاريخ سبتة خلال القرن الثالث الهجرى يكتنفه من الغموض ، لأن المصادر لا تمدنا بأية تفصيلات عن دولة بنى عصام باستثناء القول بأنهم من غمارة وأنهم حكموا سبتة خلال هذه الفترة ، وأنهم كانوا يدينون بنوع من التبعية للأدارسة ملوك فاس .

سبتة كمنطقة صراع بين الأمويين والفاطميين :

تمكن الفاطميون فى نهاية القرن الثالث الهجرى (٩م) من اقامة امامه أو خلافة لهم فى منطقة المغرب الأدنى (افريقية) عقب القضاء على دولة الأغالبة ، كما سيطروا على أجزاء واسعة من المغربين الأوسط والأقصى عقب تغلبهم على دولتى الخوارج ببلاد المغرب : الرستميين فى تاهرت وبنى مدرار فى سلجماسة ، ثم تطلع الفاطميون الى بلاد الأندلس بغية الاستيلاء عليها ، وقد ارتأى الفاطميون أن ضـم بـلاد

---

(١١) تولى القاسم حكم سبتة وطنجة وتطوان . انظر . ابن ابى زرع : الأنيس المطـرب بروض القرطاس ، نشر تورنبرج . اوبسـالا ١٨٤٣ . ص٢٨ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبـر : طبعة بولاق ١٨٢٤هـ . جـ٤ ص١٤ .

(١٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٢٠٣ .

(١٣) ابن خلدون : المصدر السابق جـ٦ ص٢١١ .

الأندلس الى دائرة نفوذهم من شأنه أن يجعل المغرب الاسلامى كله خاضعا لهم ، وبذا ينقسم العالم الاسلامى الى قسمين : قسم شرقى تابع للخلافة العباسية السنية ، وقسم غربى تابع للخلافة الفاطمية الشيعية[١٤] . ولقد مهد الفاطميون لمشروعهم الخاص بغزو بلاد الأندلس بارسال عدد من الجواسيس لبيان حالها ، ولعل أشهر من أرسلهم الفاطميون الرحالة الجغرافى ابن حوقل النصيبى (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) وأبا اليسر الرياضى وابن هارون البغدادى[١٥] . غير أن هذه التحركات الفاطمية لم تكن خافية على أمويى الأندلس ، ولذلك بادر الخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ ــ ٣٥٠هـ / ٩١٢ ــ ٩٦١م) باتخاذ عدد من الاجراءات لدفع الخطر الفاطمى عن بلاده ، ومن هذه الاجراءات العمل على تحصين السواحل والثغور الأندلسية الجنوبية خاصة المطلة على مضيق جبل طارق ، كما عمل على احتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق ، وكانت مدينة سبتة من أهم الثغور ، وقد فطن كل من ابن خلدون والمقرى الى الغرض الذى كان الناصر الأموى يرمى اليه من وراء احتلال مدن العدوة المغربية ، ويتمثل فى مواجهة خطر الشيعة الفاطميين ، فابن خلدون يقول : « ثم سما الناصر عبد الرحمن الى ملك العدوة ومدافعة الشيعة »[١٦] . أما المقرى فيقول « ... وكانت سبتة مطمح هم ملوك العدوتين وكان للناصر المروانى صاحب الأندلس عناية واهتمام بدخولها فى ايالته ، حتى حصل له ذلك ، ومنها ملك

---

(١٤) راجع : احمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى . بيروت ١٩٧١ ص٢٣٥ ، كذلك انظر : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس . الاسكندرية ص٢٨٦ ــ ٢٨٧ .

(١٥) حول المحاولات الفاطمية لنشر مذهبهم الشيعى فى بلاد الأندلس راجع مقال الدكتور محمود على مكى الذى نشره بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد . المجلد الثانى عام ١٩٥٤ تحت عنوان « التشيع فى الأندلس » ص١١٢ ــ ١١٥ .

(١٦) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢١٧ .

المغرب ... وبها اشتد سلطانه وملك البحر بعدويته وصار المجاز فى يده »[١٧] .

وعلى الرغم من أن المصادر تجمع على أن الناصر لدين الله قد استولى على سبتة عام ٣١٩هـ ، الا أنها تختلف فى تحديد الكيفية الذى استولى بها على المدينة ، فابن حيان يذكر أن أهل سبتة أرسلوا وفدا منهم برئاسة القاضى حسين بن فتح الى الأندلس لمقابلة الخليفة الناصر حيث أعلن هذا الوفد دخول سبتة فى طاعة الأمويين نكاية بالأدارسة أصحاب البلاد الحقيقيين ، وقد أكرم الناصر أهل سبتة « ورفع منازلهم وقضى حوائجهم وأقر قاضيهم حسين بن فتح على القضاء فيهم »[١٨] . ثم أرسل الناصر أسطوله الى سبتة حيث استولى عليها وعين أمية بن اسحاق القرشى عامل الأمويين على الجزيرة الخضراء واليا على سبتة. أما ابن أبى زرع — ويؤيده لسان الدين ابن الخطيب — فيذكر أن أبا العيش أحمد بن القاسم بن كنون الحسنى كان قد خطب للناصر على جميع منابر عمله ومن ضمنها سبتة وطنجة ، ولما طلب منه الناصر أن يسلمه المدينتين السالفتين كى يتمكن من احكام السيطرة على منطقة المضيق ، رفض أبو العيش ذلك ، فاضطر الناصر الى انفاذ أساطيله للمضيق واستولى على سبتة عنوة وذلك عام ٣١٩هـ[١٩] . وهناك رواية ثالثة يوردها ابن خلدون تشير الى أن الأدارسة تنازلوا للناصر عن مدينة سبتة ، وأنهم أشاروا عليه بأخذها من بنى عصام ، فقام الراضى ابن عصام بتسليم المدينة لقواد الناصر وبذلك خضعت المدينة

---

(١٧) المقرى : ازهار الرياض فى اخبار القاضى عياض . تحقيق عبد الحفيظ شلبى وآخرون : القاهرة ١٩٣٩ ج٢ ص٢٥٧ .

(١٨) ابن حيان : المقتبس (تحقيق بدرو شالميتا) ص٢٨٩ — ٢٩٠.

(١٩) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص٥٤ — ابن الخطيب : اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . نشر الدكتور احمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى . الدار البيضاء ١٩٦٤ ص٢١٩ .

للأمويين[٢٠] .

وكيفما كان الأمر ، فمن الثابت أن الناصر استولى على سبتة عنوة حيث أرسل أساطيله تحت قيادة فرج بن عفير الذى تمكن من اقتحام المدينة واقامة الدعوة الأموية بها ، وذلك لثلاث خلون من ربيع الأول عام ٣١٩هـ[٢١] ، وقد عمل الناصر على تحصين تلك المدينة « فشكها بالرجال واتقنها بالبنيان وبنى سورها بالكذان »[٢٢] ، وألزم فيها من رضية من قواده وأجناده ، وصارت مفتاحا للغرب والعدوه من الأندلس وبابا اليها كما هى الجزيرة الخضراء وطريف مفتاح الأندلس من العدوة ، وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين لثلاث خلون من ربيع الأول من العام المؤرخ »[٢٣] .

هذا ما كان من شأن الأمويين ، الا أن الأمور لم تصف لهم حيث أن الأدارسة لم يرق لهم استيلاء الأمويين على واحدة من أهم مدنهم ، ولذا بادر الأمير ابراهيم بن محمد الحسنى بجمع أنصاره ومواليه

---

(٢٠) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢١١ ، ص٢١٧ .

(٢١) ابن حيان : المقتبس (شاليتا) ص٢٩٩ — راجع ايضا ابن خلدون : المصدر السابق جـ٦ ص٢١١ حيث يذكر أن القائد الأموى الذى استولى على سبتة يدعى نجاح بن عفير وليس فرج بن عفير كما ذكر غالبية المؤرخين .

(٢٢) الكذان : Pierre du Tuf نوع من الحجارة البيضاء تستعمل فى بناء الجدران وتبليط الأرض ونحت درجات السلالم ، وقد استخدمه الأمويون فى ابنية مدينة الزهراء بجوار مدينة قرطبة . راجع

R. Dozy : Supplement aux dictionaires arabes, Beyrout, 1968, VOL 2, pp. 458 - 459 .

انظر كذلك : عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الاسلامية ، بيروت ١٩٨٨ ص ٣٢٣ .

(٢٣) ابن عذارى : البيان المغرب : جـ٢ ص٢٠٤ ، اندرية جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية جـ٢ ص٨٠ .

من قبائل البربر وزحف بهم الى سبتة حيث حاصرها فى محاولة لطرد القائد الأموى اميه بن اسحاق القرشى ومن معه من الجند الأندلسيين ، بيد أن ابراهيم لم يظفر بطائل من وراء محاولته تلك ، واضطر الى الانسحاب من أمام سبتة ، وكتب للناصر يعلن له دخوله فى طاعته وبذلك استقامت سبتة للأمويين[٢٤] ، وقد قام الناصر بعد ذلك بالاستيلاء على ثغر طنجة المجاور لسبتة ليحكم بذلك قبضته على منطقة المضيق ويتدخل فى سياسة المغرب لاثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمى[٢٥] . وهكذا صارت سبتة الى الأمويين ، فماذا كان من شأن الفاطميين ؟

لم يقف الفاطميون مكتوفى الأيدى أمام سياسة عبد الرحمن الناصر فى منطقة المضيق خاصة بعد أن تمكن الناصر من بسط نفوذه على سبتة وطنجة ، وهذا ما دفع الخليفة الفاطمى المهدى عبيد الله (٢٩٧ — ٣٢٢هـ / ٩٠٩ — ٩٣٤م) الى ارسال جيش كبير تحت قيادة حميد بن يصلتين أمير مكناسة وعامله على تاهرت فى محاولة للاستيلاء على سبتة وطرد الأمويين منها وذلك عام ٣٢١هـ . وقد بادر الناصر بارسال أسطوله الى سبتة لحمايتها من أية هجمات منتظرة من جانب الفاطميين ، كما سير القائد قاسم بن طملس مع الجند ، فوصلوا الى سبتة ، وبدأ ابن طملس يستعد للدفاع عنها ، بيد أن الجيش الفاطمى الذى سيره المهدى لم يصل الى سبتة لأن موسى بن أبى العافية حليف الأمويين بالمغرب تمكن من رد الفاطميين والحاق الهزيمة بعساكر حميد بن يصلتين[٢٦] . وقد عاود الفاطميون الهجوم على سبتة عام ٣٤٧هـ /

---

(٢٤) ابن حيان : المقتبس (نشر شالميتا) ص٢٩٠ — ٢٩١ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٤١ .

(٢٥) مختار العبارى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ١٩٧١ ص ٣٩٩ .

(٢٦) ابن خلدون : ج٤ ص١٤١ .

٩٥٨م على يد قائدهم الشهير جوهر الصقلي أو الصقلبي[٢٧] ، ولكن جوهر لم يتمكن هو الآخر من الاستيلاء عليها نظرا لحصانتها ، فتركها وعاد الى افريقية[٢٨] . وهكذا تمكن الناصر من الاحتفاظ بمدينة سبته في قبضته .

ثم خلف الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ / ٩٦١ ـ ٩٧٦م) أباه عبد الرحمن الناصر وسار على نفس السياسة التي تهدف الى مواجهة الخطر الفاطمي عن طريق الاحتفاظ بمنطقة المضيق واحتلال القواعد المغربية المطلة عليه مثل سبتة وطنجة ، الا أن هذه السياسة اصطدمت بمصالح الأدارسة الذين كانوا يرغبون في استعادة نفوذهم القديم في هذه المناطق ، ولذلك فقد قاموا بثورة عنيفة عام ٣٦١هـ / ٩٧٢م تحت زعامة الحسن بن كنون الذي استولى على طنجة وتطوان وأصيلا ، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على سبتة . وبالطبع فقد رأى الخليفة الأموي الحكم ضرورة الاسراع بارسال جيوشه وأساطيله الى منطقة المضيق للمحافظة على النفوذ الأموي هناك ، ولذلك بعث وزيره وقائده محمد بن القاسم بن طملس الى سبتة في شوال عام ٣٦١هـ / أغسطس ٩٧٢م ، كما أرسل أسطوله بقيادة عبد الرحمن بن رماحس الذي نزل بسبتة أولا ومنها انطلق الى طنجة لحصارها من ناحية البحر ، في حين حاصرها القائد محمد بن القاسم من ناحية البر ، وبذلك تمكن الأمويون من استعادة طنجة ، بيد أن الحسن بن كنون لم يقلع بذلك ، وتمكن من جمع شمله وتوحيد صفوفه من جديد ، وشن هجوما ناجحا على الجيش الأموي في فحص مهران باحدى ضواحي طنجة من قتل القائد ابن طملس وذلك في ربيع الأول عام ٣٦٢هـ / ديسمبر

---

(٢٧) حول اصل هذا القائد وهل هو صقلي أم صقلبي راجع : مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩م ، ص ٦٠ ـ ٦١ .

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب : جا ص٢٢٢ .

٩٧٣م ، وهربت فلول الجيش الأموى الى سبتة وكتبوا للحكم المستنصر يستصرخونه ويصفون له ما لحق بهم من هزيمة وقتل[٢٩] .

وقد استاء الحكم المستنصر استياء كبيرا لهزيمة قواته فى منطقة المضيق ، ولذلك استدعى وزيره غالب بن عبد الرحمن المعروف بالناصرى[٣٠] وأمره بالمسير الى العدوة المغربية واعادة النفوذ الأموى هناك والقضاء على الأدارسة ، وقال له : « يا غالب سر مسير من لا اذن له فى الرجوع الا حيا منصورا أو ميتا معذورا ، ولا تشح بالمال وابسط يدك به يتبعك الناس »[٣١] . وقد تمكن الوزير غالب بفضل تلك الامدادات الهائلة التى أمده بها الخليفة الحكم من استعادة النفوذ الأموى فى فى منطقة المضيق والقضاء على نفوذ الأدارسة[٣٢] .

وفى أيام الخليفة الأموى هشام المؤيد بن الحكم (٣٦٦ — ٣٩٩هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٨م) وحاجبه المنصور ابن أبى عامر ، استمرت سياسة الأمويين تجاه سبتة ومنطقة المضيق على ما كانت عليه أيام أبيه

---

(٢٩) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ، نشر ليفى بروفنسال . الرباط ١٩٣٤ ص ٨ — ٩ ، ابن حيان : المقتبس ، القطعة الخاصة بعصر الحكم المستنصر . نشر عبد الرحمن حجى . بيروت ١٩٦٥ ، ص٩٦ ، ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص٥٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص٢٤٦.

(٣٠) عن غالب الناصرى راجع : ابن حيان : المصدر السابق فى عدة مواضع ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام نشر بروفنسال ص٦٢—٦٥ ، ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٢٧٨ — ٢٧٩ ، انظر ايضا : حمدى عبد المنعم حسين : فارس الأندلس غالب الناصرى ودوره فى حوادث المغرب الأندلس . مقال بمجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية . المجلد ٣٧ عام ١٩٨٩ .

(٣١) ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص٥٧ .

(٣٢) ابن حيان : المصدر السابق ص١٠٨ — ١٠٩ ، مؤلف مجهول ، مفاخر البربر ص٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص٣٤٧ . راجع أيضا : مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس . الاسكندرية ١٩٦٨ — ٢٨١ .

وجده ، وقد أوضح صاحب كتاب مفاخر البربر تلك السياسة بقوله « واقتصر محمد بن أبى عامر لأول قيامه على ضبط مدينة سبتة وما ولاها بجند السلطان الأندلسى ، وقلدها كبار رجاله من أصحاب السيوف والأقلام على حسب تغيير طبقاتهم[٣٣] . وقد تولى أمر سبتة فى هذه الفترة القائد جعفر بن على بن حمدون الأندلسى[٣٤] ، ولكنه لم يستمر طويلا فى ولايتها حيث استدعاه المنصور بن أبى عامر هو

---

(٣٣) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص١٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص٨٤ .

(٣٤) هذا القائد ينسب الى اسرة بنى حمدون الأندلسيين الذين عملوا فى خدمة الفاطميين فى بداية الأمر حيث كان لعلى بن حمدون اياد بيضاء على الدولة الفاطمية بالمغرب ، فقد انضم الى الدعوة الفاطمية منذ أيام الداعى ابى عبد الله الشيعى ، واستمر فى خدمة الخليفة الفاطمى المهدى عبيد الله وابنه الخليفة القائم ، وقد لقى على بن حمدون مصرعه دفاعا عن الدولة الفاطمية على يد اثائر أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م ، وقد خلفه ابنه جعفر الذى عقد له المنصور الفاطمى على المسيلة والزاب . ومما يؤثر عن جعفر انه كان موضع مديح الشعراء وخاصة الشاعر الأندلسى الشهير ابن هانىء الذى مدحه بالأبيات الشهيرة :

المدثفان من البرية كلها ... جسمى وطرف بابلى احور

والمشرقات النيرات ثلاثة ... الشمس والقمر المنير وجعفر

على أن جعفر بن على لم يستمر طويلا فى خدمة الفاطميين بالمغرب ، لأن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى عرض على جعفر أمر ولاية المغرب لأنه قد قرر الرحيل الى مصر عقب فتحها باسم الفاطميين على يد القائد جوهر ، ولكن جعفر اشترط على المعز شروطا تجعله شبه مستقل عن الخلافة بمصر ، فرفض المعز ذلك واسند أمر بلاد المغرب الى زيرى بن مناد الصهاجى ، وقد ادى ذلك الى غضب جعفر بن على وفراره الى قبيلة مغراوه وبنى برزال الزناتيين حلفاء الأمويين بالأندلس ، ودعا للحكم المستنصر واشتبك فى قتال عنيف مع انصار الفاطميين بالمغرب وتمكن من القضاء على زيرى بن مناد الصنهاجى وذلك عام ٣٦٠هـ/٩٧١م .

راجع : ابن هانىء الأندلسى : ديوان ابن هانىء . تحقيق كرم البستانى . بيروت ١٩٨٠ . ص١٦٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص٢٤٢ ، ٢٤٣ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . طبعة بولاق ١٢٧٠ ج ١ ص٣٥٢ ، ٣٥٣ .

وجنوده من البربر الى الأندلس ليشترك معه فى القضاء على منافسه فى السلطة الوزير غالب بن عبد الرحمن الناصرى[٣٥] . وعلى الرغم من رحيل جعفر عن سبتة الا أن المنصور بن أبى عامر لم يهمل أمرها ، بل اهتم بها اهتماما كبيرا ، وقد أوضح ابن خلدون ذلك فى معرض حديثه عن سياسة المنصور تجاه مدينه سبتة واهتمامه بها دون بقية بلاد المغرب الأخرى الخاضعة للعقود الأمويين فيقول : « ... وعناد جعفر بن على الى مكنه من الحضرة وساهمه المنصور فى حمل الرياسة، وبقى المغرب غفلا من الولاية واقتصر المنصور على ضبط سبتة ووكل الى ملوك زناتة دفاع صنهاجة وسائر أولياء الشيعة[٣٦] . وقد أثبتت الاحداث أن اهتمام ابن أبى عامر بسبتة كان له ما يبرره ، فقد تعرضت المدينة لهجوم كبير شنه الأمير بلكين بن زيرى الصنهاجى أمير الزيريين الذى خلف ابه فى حكم بلاد المغرب باسم الفاطميين ، وقد حاول بلكين بسط السيادة الفاطمية على بلاد المغرب الأقصى واستولى فى سبيل ذلك على مدن فاس وسجلماسة وبلاد الهبط[٣٧] ، وطرد عمال بنى أمية من هذه المناطق ، وقد تجمعت فلول القوات الأموية فى مدينة سبتة وبعثوا للمنصورين أبى عامر يعلدونه بأمر هجوم بلكين على المغرب الأقصى وحصاره لمدينة سبتة ، وعلى الفور جهز المنصور أعدادا كبيرة من الجند المغاربة والأندلسيين ، وعهد لجعفر بن على بن حمدون قيادة قيادة هذه الجيوش . وقد اجتمعت جيوش الأمويين بظاهر سبتة ، فلما وصل بلكين الى أعالى الجبال المطلة على سبتة « فرأى ما هاله واستيقن امتناعهم ، ويقال أنه لما عاين سبتة من سنسرمة (؟) ورأى اتصال المدد

---

(٣٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣٦) ابن خلدون : العبر جـ٧ ص٢٩ .

(٣٧) بلاد الهبط هى المنطقة التى تقع فى شمال غرباوه والقصر الكبير فى شمال المغرب الأقصى .

من العدوة الى معسكرهم بها قال : هذه أفعي فغرت فاها الينا ، وكر راجعا على عقبه »[٣٨] .

وعلي الرغم من الفشل المتكرر الذي أصاب حملات الفاطميين على مدينة سبتة ، الا أن أنظارهم ظلت متطلعة اليها ، وظل الأمل يراودهم في ضمها مع مدن المضيق الاخرى الى دائرة نفوذهم لحرمان الأمويين من هذا الموقع الاستراتيجي المهم ، وهذا ما جعل الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦هـ / ٩٧٥ — ٩٩٦م) ووزيره يعقوب بن كلس يرسلان الحسن بن كنون بجيش كبير الى المغرب ، محاولين ضرب النفوذ الأموي هناك[٣٩] ، فسار الحسن الى المغرب بعد أن أمده العزيز بالأموال اللازمة ، كما أرسل بلكين بن زيري ثلاثة آلاف فارس انضموا لجيش ابن كنون . وتمكن الحسن بفضل هذه الامدادات من فرض الحصار على مدينة سبتة . ولا شك أن هذه التحركات الفاطمية أثارت الخليفة هشام وحاجبه المنصور بن أبي عامر ، فقد بادر المنصور بانقاذ ابن عمه القائد أبي الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر الملقب

---

(٣٨) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٥٦ . وقد أورد صاحب كتاب مفاخر البربر نصا مشابها لنص ابن خلدون مع اختلاف بسيط في بعض العبارات ، حيث قال على لسان بلكين لما شاهد كثرة أعداد الجند الأمويين المتجمعين بظاهر سبتة « انما سبتة حية ولت ذنبها حذاءنا وفغرت فاها نحونا » . راجع : مفاخر البربر ص١٧ .

(٣٩) كان الحسن بن كنون قد طلب الأمان من القائد غالب الناصري عقب نجاح الأخير في القضاء على نفوذ الأدارسة في منطقة المضيق وبلاد المغرب الأقصى كما سبق أن أشرنا . وقد اصطحب القائد غالب الحسن ابن كنون معه الى قرطبة حيث عاش فترة من الوقت هناك ، حتى قرر الوزير جعفر بن عثمان المصحفي وزير الحكم المستنصر اخراجه من الأندلس ومن معه من الأدارسة الى المشرق ، واشترط عليهم بالا ينزلوا بأية أرض مغربية . وقد وصل هؤلاء الأدارسة الى مصر حيث رحب العزيز بالله الفاطمي بهم ليستخدمهم كسلاح ضد أعدائه الأمويين في المغرب . راجع : مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص١٥ — ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص٢١٩ ، جـ ٧ ص٢٩ .

بعسكلاجة فى جيش كثيف جاز البحر الى سبتة التى تجمعت بها القوات المغربية والأندلسية ، وتمكن عسكلاجة من التصدى لجيش الحسن بن كنون وهزيمته وأسره فى نهاية الأمر ، وأرسله الى قرطبة حيث قتله المنصور بن أبى عامر وذلك عام ٣٧٢هـ / ٩٨٥م .

ولكن سبتة لم تلبث أن تعرضت لهجوم آخر حينما قام زيرى بن عطية المغراوى بشق عصا الطاعة على المنصور بن أبى عامر ودلت عام ٣٨٦هـ / ٩٩٦م . وكان زيرى بن عطية أحد حلفاء الامويين فى المغرب وشارك فى القضاء على نفوذ الأدارسة . ولكنه لم يلبث أن انقلب على الأمويين عقب عودته من زيارة قام بها للأندلس[٤٠] ، اذ يروى المؤرخون أن زيرى بن عطية لما عبر المضيق عائدا الى وطنه واستوت قدمه على أرض مدينة طنجة ، تعمم وخاطب بلاده مرحبا « الآن علمت أنك لى »[٤١] . وهذه العبارة تدل على عزمه على الاستقلال ببلاد المغرب . وقد تمكن زيرى بن عطية من هزيمة الجيوش الأموية التى سيرها ابن أبى عامر لقتاله بقيادة واضح الفتى وذلك عام ٣٨٧ هـ / ٩٧٧م . كما قام زيرى بطرد جميع عمال بنى أمية من المغرب وألجأهم الى سبتة حيث تحصنوا بها وبعثوا الى ابن أبى عامر يخبرونه بما حدث[٤٢] . ولم يجد المنصور بدا من حشد جميع جيوش الأندلس ، وخرج بهم الى الجزيرة الخضراء حيث أجازهم جميعا الى سبتة تحت قيادة ولده المظفر عبد الملك ، الذى تمكن من احراز النصر على زيرى ابن عطية وحلفائه بأحواز طنجة[٤٣] .

---

(٤٠) عن أسباب النزاع بين زيرى بن عطية والمنصور بن ابى عامر راجع : ابن أبى زرع : المصدر السابق ص٦٤ — ٦٥ ، ابن خلدون : العبر جـ٧ ص٢٩ ، ٣٠ .

(٤١) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٢٢ .

(٤٢) ابن ابى زرع : المصدر السابق ص٦٦ .

(٤٣) نفس المصدر السابق والصفحة .

ومن خلال تلك الأحداث المتعاقبة يتضح لنا أن مدينة سبتة كانت محور صراع دائم بين القوى المتناحرة في منطقة مضيق جبل طارق ، فكل طرف يسعى للاستيلاء عليها نظرا لأهميتها الحربية وحصانتها وتحكمها في منطقة المضيق ، ولهذا استمات الأمويون في الدفاع عن سبتة وحرصوا أشد الحرص على ألا تقع هذه المدينة في أيدى أعدائهم، وقد نجحوا في ذلك تماما — وتمكنوا بفضل احتفاظهم بسبتة وطنجة من دفع الخطر الفاطمي عن بلاد الأندلس • ولعلنا لا نكون بعيدين عن الصواب اذا ما قلنا أن عدم استطاعة الفاطميين الاستيلاء على سبتة وطنجة كان من ضمن الأسباب التي جعلتهم يصرفون النظر عن فكرة توحيد القسم الغربي من العالم الاسلامي والتعجيل برحيلهم الى المشرق(٤٤) •

سبتة والحموديون :

الحموديون فرع من الأدارسة من ولد عمر بن ادريس الثاني ، كانوا قد رحلوا الى الأندلس عقب فشل زعيمهم الحسن بن كنون في استعادة ملكهم بعد أن قضى عليه كل من الفاطميين والأمويين . وقد شارك الحموديون في احداث الفتنة التي حلت بالأندلس في نهاية القرن الرابع لهجرى (١٠م) وبداية القرن الخامس (١١م) والتي عرفت في المصادر التاريخية باسم الفتنة البربرية(٤٥) ، لأن القبائل البربرية في الأندلس كان لها دور كبير في احداثها • وقد انضم اثنان من هؤلاء

---

(٤٤) لا شك ان عوامل رحيل الفاطميين من المغرب الى مصر والمشرق عديدة ولا يتسع المقام هنا للحديث عنها ، ولكن يمكن الرجوع الى كتاب : في التاريخ العباسي والفاطمي للدكتور مختار العبادي ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، لمعرفة المزيد عن هذه العوامل .

(٤٥) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٢١ — المقرى : نفح الطيب من غض أندلس الرطيب . تحقيق احسان عباس • بيروت ١٩٦٨ جـ ١ ص ٤٨٢ .

الادارسة وهما : علي بن حمود وأخوه القاسم الى جانب سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر في صراعه ضد الخليفه الأموى هشام المؤيد ، وتذكر المصادر ان سليمان لما تم له الأمر ودخل قرطبة في ٢٦ شوال عام ٤٠٣هـ / ٩ مايو ١٠١٣م كافأ زعماء البربر(٤٦) الذين ناصروه بأن ولاهم الولايات ، فأعطى على ابن حمود ولاية سبتة والقاسم بن حمود ولاية طنجة وأصيلا والجزيرة الخضراء(٤٧) وقد أثار هذا العمل دهشة قواد سليمان المستعين ، لأنه يعنى أن يتحكم الحموديون فى منطقة المضيق ويصبح من السهل عليهم تهديد الدولة الأموية فى قرطبة . وقد عبر أحد قادة سليمان المستعين — وهو القائد عبيد الله البرزالى — عن تخوفه من تحكم الحموديين فى منطقة المضيق فقال للخليفة سليمان : « يا أمير المؤمنين بلغنى أنك وليت بنى حمود على المغرب . قال : نعم . قال : أليس العلويون طالبيين ؟ قال : نعم . قال : تأتى الى خشاش وتردهم ثعابين قال : نفذ الأمر فى ذلك(٤٨) . وعلى الرغم من أن المصادر تأخذ على سليمان المستعين أنه عين على بن حمود واليا على سبتة ، وتصف ما قام به بأنه نوع من الغفلة وسوء التدبير ، الا أنه يبدو أن سليمان كان يدرك أن

---

(٤٦) من المعلوم ان الادارسة من العرب أصلا ، ولكن نظرا لاستقرارهم فى بلاد المغرب فترة طويلة ومخالطتهم للبربر أن صاروا مثلهم حتى أنهم كانوا يتكلمون باللغة البربرية ، ومما يروى فى هذا المجال ان على بن حمود حينما قتل الخليفة الأموى سليمان المستعين قال بلسانه البربرى : لا يقتل الزلطان الا الزلطان (أى السلطان) . راجع : ابن الخطيب : اعمال الأعلام . القسم الثانى (بروفنسال) ص١٢١ .

(٤٧) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . تحقيق احسان عباس . ليبيا ١٩٧٥ القسم الأول . الجزء الأول ص٣٨ ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان : القاهرة ١٩٦٣ ص٩٠ — ابن الخطيب : المصدر السابق ص١١٩ .

(٤٨) ابن عذارى : البيان المغرب ص١١٤ ، ابن الخطيب : نفس المصدر ص١٢٨ — ١٢٩ .

عليا يتطلع الى الخلافة فأراد أن يبعده عن الأندلس الى سبتة حتى يأمن شره[٤٩] .

على أية حال ، فقد بدأ على بن حمود فور وصوله الى سبتة اتخاذ الاجراءات الكفيلة بالقضاء على النفوذ الأموى فى منطقة المضيق ، فبدأ بأعوان الخليفة سليمان المستعين المنتشرين فى المدينة ، وقام بالقاء القبض على اثنين من كبار رجال [illegible] الأموى وهما : قاضى سبتة محمد بن عيسى بن زوبع[٥٠] ، والفقيه ابن يربوع ، فقد اتهم على بن حمود القاضى ابن زوبع بأنه يحرض العامة ضده وأنه على صلة برجال الخليفة المستعين ولذلك عاقبه بالقتل ، كما لقى الفقيه ابن يربوع نفس المصير[٥١] . ثم أعلن ابن حمود من مقره بمدينة سبتة خروجه عن طاعة سليمان المستعين ، وتختلف المصادر فيما بينها حول تحديد الكيفية التى أعلن بها ابن حمود خروجه عن الطاعة ، فابن الخطيب يذكر أن بعض الموالى العامريين قد استاءوا من تصرفات

(49) Joaquin Vallvé : Suqut Albargawati : Rey de Ceuta. Revista Alandalus, Vol. XXVIII, Fasc. I, 1963, p. 173.

(٥٠) ابن زوبع : هو قاضى سبتة أبو بكر محمد بن عيسى ، ولد بالبصرة ، ولكنه عاش فى سبتة حيث ولى منصب صاحب الشرطة العليا ثم قضاء سبتة وطنجة واصيلا ، وكان الذى رشحه لمنصب القضاء الفقيه ابن ذكوان قاضى قرطبة . ويذكر القاضى عياض فى كتابه « ترتيب المدارك » نقلا عن ابن حيان — رواية تقول ان القاضى ابن زوبع لم يكن من المحبذين فكرة انفصال سبتة عن الدولة الأموية ، ولذلك اصطدم بعلى بن حمود الذى أثار العامة على القاضى فقتلوه ، بيد أن القاضى عياض (وهو من أهل سبتة) ينفى أن تكون العامة قد مست ابن زوبع بأى أذى نظرا لحبهم الشديد له ، ويشير القاضى عياض الى أن ابن زوبع انما قتل على يد رجال على بن حمود وذلك عام ٤٠٤هـ / ١٠٤١م . راجع : القاضى عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . تحقيق محمد سعيد غراب وآخرون ، المحمدية ١٩٨٢ جـ٧ ص١١٢ — ١١٣ . انظر كذلك : ابن بشكوال : كتاب الصلة . القاهرة : ١٩٦٦ جـ٢ ص٥٩٤ .

(٥١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص١١٥ — ابن الخطيب : اعمال الاعلام القسم الثانى ص١٢١ .

الخليفة سليمان بسبب اعتماده كليا على البربر المغاربة ، فدبروا مؤامرة للتخلص منه بأن كاتبوا علي بن حمود وأرسلوا له عهدا منسوبا الى الخليفة الأموى هشام المؤيد بخطه يعهد فيه بالأمر الى علي بن حمود من بعده[٥٢] . أما ابن بسام فيذكر نقلا عن ابن حيان — أن الخليفة هشام المؤيد لما رأى ضعف حاله وقيام الثوار عليه من أهل بيته ، بعث الى علي بن حمود بولاية عهده وأوصى له بالخلافة وراسله بذلك[٥٣] . في حين أن المراكشي يشير الى أن ابن حمود لما أراد الخروج على طاعة المستعين راسل المنضمين الى جيش سليمان المستعين ، وادعى أن الخليفة هشام بن الحكم قد عهد اليه بولاية العهد من بعده[٥٤] . والرأى الأخير هو الأقرب الى الصحة لأن سليمان المستعين تخلص من هشام المؤيد عقب دخوله قصر قرطبة مباشرة فى ٢٧ شوال ٤٠٣هـ / ١١ مايو ١٠١٢م ، كما أن سليمان لم يقم على بن حمود على سبتة الا بعد أن استقر له الأمر وانتهى من أمر هشام المؤيد ، ويغلب على الظن أن على بن حمود كان ينوى الخروج على سليمان عندما وصل الى سبتة ، وأنه كان يعد العدة لذلك ، فقام أولا بتصفية أنصار الأمويين بسبتة — كما ذكرنا — ثم خاطب أخاه القاسم بن حمود وطلب منه احتلال الجزيرة الخضراء ليتحكم فى منطقة المضيق ، ثم تعلل بعد ذلك بقصة ولاية العهد من قبل الخليفة هشام المؤيد مستغلا قصة اختفاء الخليفة هشام[٥٥] .

وكيفما كان الأمر ، فقد عبر على بن حمود المضيق من سبتة الى

---

(٥٢) ابن الخطيب : نفس المصدر السابق والصفحة .

(٥٣) ابن بسام : الذخيرة . القسم الأول ، الجزء الأول ص٣٨ ، ابن عذارى : المصدر السابق جـ٣ ص١١٥ .

(٥٤) المراكشى : المعجب ص٩١ .

(٥٥) راجع : عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس الاسكندرية ص٣٥٦ .

مالقه بعد أن ترك ابنه وولى عهده يحيى حاكما على سـبتة[٥٦] • ثم واصل زحفه الى قرطبة حيث تمكن من دخولها وقتل سليمان وأعلن دست الخلافة وتلقب بالناصر وذلك فى المحرم عام ٤٠٧ هـ / يونيو ١٠١٦م[٥٧] • بيد أن على بن حمود لم يستمر طويلا فى خلافة قرطبة حيث اغتاله بعض فتيانه الصقالبة وذلك فى ذى القعدة عام ٤٠٨هـ / مارس ١٠١٨م ، فقام أخـوه القاسم بارسل جثته الى سـبتة ليدفن هناك[٥٨] ، أما هو فقد أعلن خلافته على قرطبة •

تولى يحيى بن على بن حمود ولاية سبتة عقب مصرع أبيه لمدة ثلاث سنوات ، ثم انتهز فرصة اضطراب أمور عمه القاسم ، واستعان بالفتيان العامريين وتمكن من الاستيلاء على طنجة عام ٤١٢ هـ ، وأرسل الى أخيه ادريس حاكم مالقه ، وطلب منه أن يتنازل له عنها عـلى أن يوليه حكم سبتة ويعينه وليا لعهده فى حالة نجاحه فى القضاء عـلى عمهما القاسم[٥٩] • وقد تمكن يحيى من دخول قرطبة ففر عمه الى اشبيلية • وقد استقر ادريس بن على بن حمود حاكما على سبتة فترة طويلة بلغت خمسة عشر عاما ، ولم تذكر المصادر لنا شـيئا عنه كل هـذه الفتر اللهم خـلافه مع قاضى سـبتة يوسف بن حمود وعزله عن

---

(٥٦) نلاحظ ان مدينة سبتة صارت مقرا دائما للأمراء الحموديين الذين تولوا العهد ، ويبدو ذلك واضحا من خلال دراسة العملات التى سكت فى سبتة خلال فترة حكم الحموديين •

راجع :
Prieto Y Vives : Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926, pp. 163 - 164.

(57) Louis Seco de Lucena : Los Hammudies, Senores de malaga Y Algeciras, Revista Alandalus, Vol XIX, 1954, pp. 11 - 12.

(٥٨) ابن بسام : الذخيرة • القسم الأول الجزء الأول ص١٠١ — ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص١٢٣ •

(٥٩) ابن الخطيب : أعمال الاعلام • القسم الثانى ص١٣١ — ١٣٢، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص١٥٣ •

منصبه[٦٠] . ولما قتل يحيى بن علي بن حمود بالاندلس عام ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥م ، فاذا بأبي جعفر احمد بن موسى المعروف بابن بقنه ونجا الخادم الصقلبي — وهما مدبرا أمر الحموديين بالاندلس — يستدعيان ادريس بن علي من سبتة الى مالقه ليتولى الخلافه ، واشترطا عليه أن يعين ابن أخيه الحسن بن يحيى حاكما على سبته ووليا لعهده ، فقبل ذلك ثم عبر المضيق الى الاندلس حيث أعلن خلافته وتلقب بالمتأيد بالله . أما الحسن بن يحيى فقد وصل الى سبتة فى رفقة الخادم نجا الصقلبى[٦١] . ولكن الحسن بن يحيى لم يمكث بسبتة الا ثلاثة أعوام غادر بعدها المدينة الى الاندلس ، ويذكر المراكشى أن الخادم نجا الصقلبى لما علم بوفاة ادريس المتأيد بالله ركب البحر مصطحبا معه الحسن بن يحيى الى ما لقه بعد أن استخلف على سبتة من يثق به من الصقالبة[٦٢] ، وبويع للحسن بن يحيى بالخلافة ولقب بالمستنصر بالله[٦٣] ، أما نجا الصقلبى فقد عاد الى سبتة لضبطها ويحفظ ثغرها ، وقد اصطحب معه أحد أبناء الحسن بن يحيى يسمى حبيبا .

وقبل أن نستطرد فى سرد أحداث سبتة السياسية فى ظل الحموديين ، يجب أن نشير هنا الى ملاحظتين مهمتين : الأولى : وتتعلق

---

(٦٠) الضبى : بغية الملتمس ص٤٧٣ — ٤٧٤ ؛ ابن بشكوال : الصلة ج٢ ص٦٨٣ ، انظر ايضا :

Vallvé ; op. cit.. pp. 174 - 175.

(٦١) مؤلف مجهول : الاستبصار ص١٩٧ ، المراكشى : المعجب ص١١٣ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٥٤ . كذلك راجع :

Prieto Y Vives : Los Reyes de Tai Fas : p. 27.

(٦٢) المراكشى : المصدر السابق ص١١٥ . أنظر ايضا :

Prieto y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 27 .

(٦٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص١٩٢ . فحين يذكر المراكشى أنه لقب بالمستعلى ، ولكن ما ذكره ابن عذارى هو الأصوب حيث عثر على بعض الدراهم التى ضربت بمدينة سبتة عام ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م عليها اسم الحسين بن يحيى ولقبه المستنصر : راجع :

Prieto Y Vives : op. cit., p: 171 .

بالمدينة نفسها التى أصبحت نقطة انطلاق لغالبية الأمراء الحموديين الذين تولوا الخلافة فى الاندلس سواء فى مالقه أو فى قرطبة . والثانية تتعلق بالصقالبة الذين سيطروا على الامراء الحموديين وصاروا يولون ويعزلون من يريدون . وقد حرص هؤلاء الصقالبه على وضع مدينة سبتة فى قبضتهم كى يتدخلوا فى شئون الأندلس كيفما يرغبون. — على أية حال — استمر نجا الصقلى يدبر أمور سبتة باسم حبيب ابن الحسن بن يحيى حتى علم بنبأ اغتيال الحسن عام ٤٣٤هـ ، فغادر سبتة بعد أن ترك عليها من يثق به من صقالبته ، ونزل مالقه حيث رغب فى الأمر لنفسه ، ولذلك رأى أن يستأصل شأفة الحموديين ، فاعتقل ادريس بن يحيى بن على بن حمود بمالقة ، ثم رحل الى الجزيرة الخضراء للقضاء على الحسن ومحمد ولدى القاسم بن حمود ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وفى طريق عودته اغتاله بعض عبيد القاسم ابن حمود . ولما بلغ خبر مقتله مالقه ثارت العامة بنائب نجا الصقلبى الوزير الستيفى وقتلوه وأخرجوا ادريس بن يحيى من محبسه وبايعوه بالخلافة ، وذلك يوم الخميس السادس من جمادى الثانى عام ٤٣٤هـ / ٢٠ يناير ١٠٤٣م وتلقب بالعالى . وقد ولى العالى كلا من سقوت البراغوطى ورزق الله من عبيد أبيه أمر مدينة سبتة(٦٤) .

سقوت البرغواطى وسبته :

دخلت مدينة سبتة مرحلة جديدة فى تاريخها خلال فترة حكم سقوت البرغواطى لها ، فقد استقلت فى هذه المرحلة عن سيطرة الحموديين ولم يعد يحكمها أحد من هؤلاء الأمراء . وما مرت به سبتة خلال تلك الفترة لا يختلف كثيراً عما كان سائدا فى بلاد المغرب والأندلس من تمزق وفوضى سياسية وظهور دول الطوائف . فهذه الفترة المضطربة فى تاريخ الأندلس ، ألقت بظلالها على المغرب وخاصة منطقة

(٦٤) المراكشى : المعجب ص١١٦ ، ص١١٩ ، ابن عذارى : البيان جـ٢ ص٢٩٠ — ٢٩١ ، ابن خلدون : العبر جـ٤ ص١١٥ .

المضيق[٦٥] • وقد انتهز سقوت البرغواطى فرصة تردى أوضـــاع الحموديين وأعلن استقلاله بسبتة مكونا دولة من دول الطوائف العديدة التى ظهرت فى بلاد المغرب والأندلس فى هذه الفترة •

اما عن سقوت البرغواطى وكيف قدر له أن يظهر فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ سبتة ، فالمصـــادر تذكر أنه كان من ســـبى قبيلة برغواطة المارقة[٦٦] ، حيث أسر وهو فى ســـن الســـابعة أو الثامنة تقريبا عندما سير المنصور بن أبى عامر ٣٨٩هـ / ٩٩٩م حملة قوية ضد هذه القبيلة بقيادة واضح الفتى[٦٧] • وقد اشتراه حداد من أهل سبتة فى بداية الأمر ، ثم اقتناه على بن حمود أثناء ولايته لسبته[٦٨] • وقد أظهر سقوت اخلاصا وولاء لعلى بن حمود ، ورقى فى خدمته الى أن أعتقه ، وعقب مصرع على بن حمود انتقل ولاء سقوت ليحيى بن على الذى ولى أمور سبتة كما سبق أن ذكرنا • وبعد رحيل يحيى بن على الأندلس ظل سقوت ومولى آخر من موالى سبتة يدعى رزق الله ويكنى بأبى العطاف يدبران أمر سبتة طيلة فترة وجـــود ادريس بن على بن حمود بها • واستمر الحال كذلك حتى بعد رحل ادريس الى الأندلس

---

(٦٥) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٥ ٠٤.

(٦٦) عن قبيلة برغواطة وديانتها المارقة راجع : البكرى : المغرب ص١٣٤ — ١٤١ ، ابن عذارى : البيان المغرب جا ص٢٢٣ ، ابن خلدون : العبر : جـ٦ ص٢٠٧ — ٢١٠ ، كذلك انظر المقال الذى كتبه روجيه لاتورنو Rogé La Tournou فى دائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان « برغواطة » ومقال الدكتور مختار العبادى « الصـــفحات الأولى من تاريخ المرابطين » مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد ٢٠ عام ١٩٦٦ ٠

(٦٧) مؤل فمجهول : مفاخر البربر ص٣٥ — ٣٧ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٠٩ ٠

(٦٨) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الثانى ص٦٥٧ ، مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٢٥٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص٢٥٠ وان كان ابن عذارى يذكر أن يحيى بن على بن حمود هو الذى اشترى سقوت وليس ابيه على ٠

وتركه ابن أخيه الحسن بن يحيى حاكما على سبتة ، ولكن سقوت كان كان أكثر نفوذا ومكانة من رزق الله ، لذلك انتهز فرصة ضعف أمـر الحموديين ، ومصرع نجا الخادم ، وعزم على الاستقلال بسبتة ، وبدأ بتصفية أفراد الأسرة الحمودية ، وهناك دلائل متعددة تؤكد ذلك ، فحينما لجأ اليه ادريس بن يحيى بن على بن حمود الملقب بالعالى عقب اقصائه عن الخلافة بمالقه عام ٤٣٨هـ / ١٠٤٧م على يد ابن عمه محمد ابن ادريس قبض عليه سقوت وحبسه حتى توفى عام ٤٤٤هـ/١٠٥٣م . ثمة دليل ثان فقد قام سقوت بقتل يحيى بن ادريس بن على بن حمود الملقب بالسامى حينما فر من مالقه الى سبتة متخفيا فى زى تاجر ، حيث نزل بريف غماره فقبض عليه وأحضر لسقوت فقتله . ثمة دليل ثالث على توجهات سقوت العدوانية تجاه الأسرة الحمودية ، فعندما أراد المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية الاستيلاء على الجزيرة الخضراء Algeceras من يد حاكمها القاسـم بن حمـود ، بعث أسـطوله لحصارها ، وقد استنجد القاسم بسقوت البرغواطى ليعينه على قتال ابن عباد ، ولكن سقوت رفض الاستجابة لطلب القاسم وترك الجزيرة الخضراء تواجه مصيرها المحتوم وسقطت فى يد ابن عباد عام ٤٤٦هـ/ ١٠٥٥م . وقد رحل القاسم وأهل بيته الى سبتة ، بيد أن سـقوت رفض استقبالهم وأجبرهم على العودة الى الشاطىء الأندلسى حيث استقروا فى ألمرية(٦٩) .

والواقع أن سقوت لم يكن بعيد النظر حينما رفض مسـاعدة القاسم ، لأن رفضه هذا أتاح لابن عباد فرصة الاستيلاء على الجزيرة الخضراء ، وبالتالى صار يهدد سبتة تهديدا مباشرا ، وهكذا استبدل سـقوت جارا ضعيفا باخر قوى ، كذلك أخطأ سـقوت حينما رفض استقبال الأمراء الحموديين وايوائهم لديه ، لأنه كان بامكانه الاستفادة

---

(٦٩) ابن عذارى : البيان : جـ٣ ص٢١٣ ، ص٢٣١ ، ص٢٤٢ .

من وجودهم بسبتة لاضفاء نوع من الشرعية على حكمه خاصة فى مواجهة القوى السياسية الأخرى المحيطة به والتى تستند الى أسس قوية مثل المرابطين فى مراكش وابن عباد صاحب اشبيلية •

وبعد أن انتهى سقوت من أمر الحموديين عمل على التخلص من شريكه رزق الله ، ويذكر ابن بسام أن سقوت تخلص منه بحيلة خفية[٧٠] وذلك عام ٤٥٣هـ / ١٠٦١م ، ثم اتخذ من الألقاب السلطانية لقب المنصور المعان ، وأخيرا أقام الدعوة فى بلاده للعباسيين لاضفاء نوع من الشرعية على حكمه ، فقد أورد Prieto Y Vives فى كتابه « ملوك الطوائف » وصفا لدرهم ضرب فى سبتة أيام سقوت البرغواطى عام ٤٦٤هـ / ١٠٧٢م وعليه النقش التالى :

الوجه : المنصور المعان سقوت
الدرهم بمدينة سبتة
سنة أربع وستين

الظهر : الحاجب الامام عبد الله
أمير المؤمنين
بهاء الدولة المعز[٧١]

ونلاحظ من هذه النقوش المثبتة على الدرهم وجود اسم الحاجب سقوت وابنه العز بهاء الدولة ، كما نلاحظ اسم « أمير المؤمنين » ، ولكن لم يحدد اسم الخليفة العباسى[٧٢] واكتفى فقط بعبارة « الامام

---

(٧٠) ابن بسام : الذخيرة . القسم الثانى . المجلد الثانى ص٦٥٨ وللأسف لم يحدد لنا ابن بسام كيف تخلص سقوت من رزق الله ، ولكنه اكتفى بالاشارة الى ان ذلك كان فى خبر طويل تركه تخفيفا للتثقيل .

(71) Prieto Y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 178.

(٧٢) الخليفة العباسى المعاصر لسقوت هو القائم بأمر الله (٤٢٢هـ — ٤٦٧هـ / ١٠٣١ — ١٠٧٥م) .

عبد الله أمير المؤمنين » • ويبدو أن عدم تحديد الاسم المجرد للخليفة العباسي أو لقبه الخلافي على السكة التي ضربها سقوت يرجع اما الى عدم معرفته لهذا الاسم او اللقب نظرا لبعد المسافة بين المغرب الأقصى وبغداد ، ولذلك اكتفى بذكر اسم « عبد الله » باعتباره اسما عاما كان يخلع دائما على من يجهل اسمه المجرد ، أو لأن الخلفاء العباسيين كانوا يكنون عن أنفسهم بلفظ « عبد الله » في النقوش والنقود خصوصا فى عهد المأمون والمقتدر ، كما أن التقاليد الدبلوماسية كانت تقضي بعدم ذكر الأسماء المجردة والاكتفاء بالألقاب والكنى ، ولذلك تجنب سقوت أن ينقش اسم الخليفة المجرد على السكة واكتفي باسم « عبد الله » وهو كنية من الممكن أن تخلع على أى خليفة عباسى ، كما أضاف لقب أمير المؤمنين وهو لقب لا يلقب به الا الخلفاء • ونلاحظ أن هذه الظاهرة تكررت أيام المرابطين حينما أقاموا الدعوة للعباسيين ببلاد المغرب(٧٣) •

سقوت البرغواطى والصراع مع بنى عباد حكام اشبيلية :

لم ينظر المعتضد بن عباد بعين الارتياح لتلك التطورات التى حدثت فى سبتة ومنطقة المضيق والتى تمخضت عن استقلال سقوت البرغواطى بأمر سبتة ، خاصة وأن المعتضد كان يرغب هو الآخر — شأنه شأن الأمويين من قبل — التحكم فى مضيق جبل طارق لدفع أى خطر قد يهدد الأندلس من ناحية المغرب • ويذكر ابن خلدون أن المعتضد طلب من سقوت أن يعلن طاعته له ، فرفض سقوت ذلك(٧٤) • ولذلك اشتعلت الحرب بين الرجلين ، وحدث فى عام ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م أن اعتقل ابن عباد أحد تجار مدينة سبتة ، فاستاء سقوت من هذا التصرف

---

(٧٣) راجع د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٥٧ ص٣٥٥ — ٣٥٦ .

(٧٤) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص١٥٥ .

ورد عليه باعقال عدد من تجار اشبيلية كانوا قد وصلوا الى سبتة فى تجارة لهم ، كما صادر سفينتهم وبضائعهم • وهكذا تبادل الطرفان أعمال المصادرة والاعتداء على رعايا وتجار الطرف الآخر • ولذلك دارت عدة معارك بحرية بين أسطولى سبتة واشبيلية ، وفى البداية أظهر أسطول ابن عباد تفوقا ملحوظا واستطاع انزال خسائر فادحة بالأسطول السبتى ، ويصور لنا ابن حيان هذه المعارك بقوله : « الى أن اكمل ابن عباد من أسطول أنشأه نحوا من ثمانين قطعة ، فأخرجها الى سبتة ، فخرج عليها أسطول لسقوت ، فكان الظهور لابن عباد ثم افترقت الأساطيل بعد حروب وسفك دماء »[٧٥] • بيد أن أسطول سبتة تمكن بعد ذلك من ابعاد خطر الاشبليين عن مياه المضيق وأصبحت هذه المنطقة تحت سيطرة سقوت البرغواطى خاصة بعد أن بسط سيطرته على مدينة طنجة •

وقد استغل سقوت هذا الوضع الجديد ، وقام بأعمال القرصنة البحرية ضد السفن التجارية بمنطقة المضيق ، فعاثت أساطيله فسادا وأضر بمصالح البلاد والعباد فى العدوتين المغربية والأندلسية ، حتى ضج الناس بالشكوى ومنه ومن أساطيله ، ويعبر ابن بسام فى الذخيرة عن ذلك بقوله « ثم اغلظ أمر سقوت حتى أخاف القريب والنازح واقتاد الحرون والجامح ، وأنبثت سراياه فى البحر والبر فأدرك المطلوب والطالب وتصيد الطافى والراسب »[٧٦] •

هذه الأعمال العدوانية ، وهذا الفساد الذى أحدثه سقوت وأسطوله فى مياه المضيق قد دفع البعض[٧٧] الى القول بأن ثمة علاقة بين دولة

---

(٧٥) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى . المجلد الثانى ص٦٥٩ — ٦٦٠ .

(٧٦) نفس المصدر السابق ص٦٦٠ .

(٧٧) د. مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والاندلسى ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

سقوت البرغواطى فى سبتة وطنجة وبين دولة برغواطة المارقة فى منطقة تامسنا[٧٨] على أساس أن هناك بعض النصوص القليلة التى يمكن أن تؤكد هذا الظن ، فعلى سبيل المثال — يقو لصاحب كتاب مفاخر البربر « وكان ظهور برغواطة سنة ١٢٧هـ /٧٤٤م فى خلافة هشام بن عبد الملك ، واستقر ملكهم آخرا بتامسنا وهم فى الأصل من زناته ، ولم يزل الملك فيهم الى أول ظهور دولة الملثمين وخروجهم من الصحراء مع عبد الله بن ياسين ، وآخر ملوك برغواطة هو الحاجب البرغواطى ضياء الدولة (ابن سقوت) صاحب سبتة وطنجة »[٧٩] ، كذلك أشار ابن خلدون الى اتصال مواطن غمارة (منطقة سبتة وطنجة) بمواطن قبيلة برغواطة من شعوب المصامدة على ساحل البحر الغربى وهو المحيط[٨٠] • ولكن على الرغم من هذا الاتصال بين سقوت ودولة برغواطة ، الا أن سقوت لم يتبع ديانة برغواطة المارقة ولم يؤثر عنه أنه خرج عن حدود الشرع الحنيف •

— على أية حال — ، فقد استمرت حالة العداء بين سقوت والمعتضد ابن عباد ، وفى عام٤٦٣هـ/١٠٧١م ، استولى المعتضد على رندة Ronda وأركش Arcos La Frontera وطرد البربر منهما ، فعبر هؤلاء المضيق الى سبتة ، ولكن سقوت صاحب سبتة رفض استقبالهم فهاموا على وجوههم فى سائر أنحاء المغرب حيث لقى قسم كبير منهم حتفه نتيجة المجاعة التى اجتاحت المغرب فى ذلك الوقت[٨١] •

---

(٧٨) تامسنا : Tamasnaكلمة بربرية من لهجة زناتة معناها البسيط الخالى . وقد اطلقت على الأراضى الممتدة على ساحل المحيط من الرباط الى فضاله والدار البيضاء وتنتهى عند أزمور عند مصب وادى أم الربيع .

(٧٩) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٤٧ .

(٨٠) ابن خلدون : العبر ج٢ ص٢١٠ — ٢١١ .

(٨١) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٥٧ .

Vallvé : op. cit., p. 178.

سقوت البرغواطى والصراع مع المرابطين :

لم يكن صراع سقوت البرغواطي مع المعتضد بن عباد نهاية المطاف، ولم يكن للأمور أن تهدأ وتستقر حيث كان هناك خصم مجاور لسقوت هم المرابطون الذين كان لهم شأن في المغرب الاقصى وكان لهم صولات وجولات معه • ومن المعلوم أن دولة المرابطين دولة اسلامية مجاهدة قامت على أساس دعوة دينية اصلاحية فى جنوب المغرب الأقصى (منطقة موريتانيا حاليا) على يد عبد الله بن ياسين[٨٢] • وقد اتخذ المرابطون من الجهاد هدفا أساسيا لهم ومبررا شرعيا لقيام دولتهم ، ولذلك بدأوا بجهاد القبائل المارقة والخارجة عن الدين في بلاد المغرب مثل قبيلة برغواطة ، ثم تقدموا شمالا حتى وصلت جيوشهم الي بلاد غمارة الواقعة تحت سيطرة سقوت البرغواطي • وقد تنبه سقوت الى خطورة هؤلاء المرابطين على ملكه وعلي بلاد الأندلس ، فأرسل الى المعتضد بن عباد — برغم حالة العداء بينهما — يخبره بتحركات المرابطين العسكرية فى المغرب الأقصى ، ويحذره من أن هؤلاء المرابطين لن يقفوا عند حدود المغرب ، بل سيعملون على عبور المضيق الى الأندلس • وكان لهذا التحذير أثره الواضح على المعتضد بن عباد ، فقد أمر عماله على الجزيرة الخضراء بتحصين جبل طارق وتقوية الاستحكامات الدفاعية فى منطقة المضيق[٨٣] • وفى نفس الوقت تحالف سقوت مع تميم بن معنصر المغراوى حاكم فاس ضد المرابطين • وتذكر

---

(٨٢) عن قيام دولة المرابطين راجع : حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين . صفحة مشرقة فى تاريخ المغرب فى العصور الوسطى . ١٩٥٧ — مختار العبادى : الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين . مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد العشرون ١٩٦٩م .

(٨٣) ابن بسام : الذخيرة القسم الثانى المجلد الأول ص ٤٠ — ٤١ ، السلاوى : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى . الدار البيضاء ١٩٥٤ جـ٢ ص٢٦ ،

Vallvé : op. cit., p. 179:

المصادر أن تميم بن معنصر تمكن من قتل المهدى بن يوسف الكزنانى (أو الجزنانى) صاحب مكناسة وحليف المرابطين ، وأرسل برأسه الى سقوت سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م[٨٤] ، مما آثار المرابطين على سقوت وتميم .

وعندما اشتد الضغط المسيحى على ممالك الطوائف بالأندلس ، أرسل المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية عام ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م سفارة الى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين يسأله النصرة والتدخل لوقف الزحف المسيحى على بلاد الأندلس ، وقد اعتذر يوسف بن تاشفين عن تقديم المساعدة نظرا لأن الثغور المغربية المطلة على المضيق (سبتة وطنجة) ليست فى حوزته ، ولكى يثبت للأندلسيين أنه راغب فى الجهاد ضد العدو النصرانى فى الأندلس ، أرسل الى سقوت صاحب سبتة وطنجة يعلمه برغبته تلك ، وتشوقه لنصرة أهل الاسلام فى الأندلس « وسأله أن يخلى الجيوش تجوز فى المجاز ، فتعذر عليه ، فشكاه يوسف الى الفقهاء فأفتوا جميعا بما لا يسر صاحب سبتة »[٨٥]

وفى عام ٤٧١هـ / ١٠٧٩م نشب قتال عنيف بن المرابطين وسقوت البرغواطى ، لأن يوسف ابن تاشفين كان يطارد بعض فلول زناته الخارجين عليه ، وقد تحصنوا بموضع يعرف بالدمنة بالقرب من مدينة طنجة ، وقد رغب سقوت — الذى كان مقيما بطنجة — أن يؤازر ابن تاشفين فى صراعه ضد الزناتين دفعا لخطر المرابطين عن ملكه من ناحية ، والتخلص من هؤلاء الزناتين من ناحية أخرى . ولكن الحاجب العز بن سقوت أثنى أباه عن عزمه وذمم له فكرة الانضمام الى جانب المرابطين ، ويعلق ابن بسام على تصرف الحاجب العز بقوله « وثناه

---

(٨٤) ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص٩٠ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٨٥ .

(٨٥) الحميرى : الروض المعطار ص٢٨٩ .

ابنه الفائل الرأى ، فقد كان هذا الفتى على بعد مرامية ولوذعية — زعموا — كانت فيه ، يذهب مذهب الجبابرة من ملوك الطوائف عندنا من الاعراض عن العواقب ، وأخذ الشاهد عيارا على الغائب أين ما هو فيه ، لا يحفل بشيء يذره ولا يأتيه »[٨٦] . ولما تمكن المرابطون من القضاء على زناتة فى الدمنة ، وجهوا جيوشهم الى طنجة تحت قيادة صالح بن عمران فى اثنى عشر ألف فارس من المرابطين ، وعشرين ألف من سائر قبائل المغرب ، وعندما اقتربت الجيوش المرابطية من طنجة ، خرج اليهم سقوت البرغواطى وأقسم ألا يسمع أحد من رعيته هدير طبـــول المرابطين[٨٧] . والتقى ســـقوت وجيشه مع المرابطين بوادى « منا » من أحـــواز طنجة فى قتال عنيف اســـتمر لمدة يومين ، انتهى بانتصار المرابطين ومصرع ســـقوت الذى كان قد قارب التسعين من عمره ، ودخلت القوات المرابطة طنجة وذلك فى الثامن والعشرين من ذى الحجة عام ٤٧١هـ / ١ يوليو ١٠٧٩م[٨٨] .

عقب مصرع سقوت ، تولى ابنه الحاجب العز حكم سبتة ، ولم يكن العز أقل قسوة وبطشا من أبيه . فقد سار على نهجه فى احكام السيطرة على منطقة المضيق عن طريق أعمال القرصنة مستغلا أسطوله القوى ، حتى ضج الناس بالشكوى من كثرة الأذى الذى يتعرضون لـــه .

ويشـــير ابن بســـام الى ذلك فيقول « من رجل استعان بالشر (يقصـــد الحـــاجب العز) وتهاون بالأمر ، لا يجبى الا من غلول ،

---

(٨٦) ابن بسام : الذخيرة : القسم الثانى . المجلد الثانى ص ٦٦٠ — ٦٦١ .

(٨٧) ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص٩٢ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٨٥ — ٢٢٢ .

(٨٨) ابن بسام : المصدر السابق ص٦٦١ ، مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٥٥ — اما ابن ابى زرع فيجعل تاريخ المعركة ٤٧٦هـ وهو خطأ . راجع : الانيس المطرب ص٩٢ .

ولا يجيش الا الى ابن سبيل ، لا سيما البحر فانه اضطر لججه نارا ، ولقى ريحه اعصارا • أخذ كل سفينة غصبا ، وأضاف الى كل رعب رعبا ، فضجت منه الأرض والسماء والتفت الشكوى عليه والدعاء »[٨٩] • وهكذا خلف سقوت خلفا مشابها له — الحاجب العز فى خصاله وفعاله ومن شابه أباه فما ظلم — كما يقولون — •

أدرك يوسف بن تاشفين أنه من الضرورى القضاء على الحاجب العز بن سقوت وضم سبتة الى دائرة نفوذ المرابطين اذا ما أراد العبور الى الأندلس للجهاد ، ولذلك فقد انتهز فرصة وصول وفد من رجال الأندلس أرسلهم المعتمد بن عباد لطلب المساعدة من المرابطين وانقاذ الأندلس من عدوان ألفونسو السادس ملك قشتاله ، وقام بتجديد فتوى الفقهاء الخاصة بضرورة القضاء على العز بن سقوت ، كما طلب من المعتمد بن عباد مساعدته بأسطوله لاحكام الحصار على سبتة برا وبحرا ، وبدأ يوسف حصاره لسبتة فى شهر صفر عام ٤٧٦ هـ / يوليو ١٠٨٣م • أما ابن عباد فقد بعث بأسطوله الى مياه سبتة ، وهذا ما يؤكده صاحب كتاب مفاخر البربر حيث ذكر أن المعتمد أنشأ سفينة « ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين بعد العهد بمثلها شدة أسر ، وسعة بطن وظهر ، كأنما بناء على الماء صرحا ممردا وأخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا ، ووجهها الى مدينة طنجة لتمتار ، وقد أنجد أمر الله وأغار ، ولما رأى أمير المسلمين وناصر الدين — رحمه الله — تلك السفينة خاطب المعتمد فى ذلك ، فشحنت على سبتة موتا ذريعا ، وأقيمت بازاء أسوارها حصنا منيعا »[٩٠] • وبالاضافة الى أسطول اشبيلية ، شارك أسطول المرابطين فى الهجوم من ناحية البحر على سبتة • وازاء تطور الأحداث على هذا النحو ، بادر العز بن سقوت

---

(٨٩) ابن بسام : المصدر السابق ص٦٦٢ ، مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٥٦ .

(٩٠) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٥٦ .

بالخروج على رأس أسطوله واشتبك مع الأسطول المرابطى فى معركة عنيفة انتهت بهزيمة المرابطين ، واستولى المعز بن سقوت على واحدة من أفضل قطع الأسطول المرابطى ، مما أثار الفزع والرعب فى معسكر قوات المرابطين أمام سبتة[٩١] ، واضطر المعز بن يوسف بن تاشفين قائد جيش المرابطين الى الانسحاب من أمام سبتة بعد أن حطم بعض محلاته حتى لا تقع فى أيدى الحاجب المعز بن سقوت . ولكن الموقف سرعان ما تغير لصالح المرابطين عندما شدد أسطول اشبيلية الحصار على سبتة ، واضطر المعز بن سقوت الى محاولة الفرار عن طريق البحر ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، فرجع الى سبتة حيث اختفى فى دار أحد العامة تعرف بدار تنوير ، « وبدرت جماعة من المرابطين ، فاقتحموا عليه بعد مرام وقتال شديد حتى ضاق اضطرابه ، وفرعنة أصحابه ، ولما أحس بالشر ، دفع ذخائر كانت عنده الى بعض أصحابه ، فبلغنى أنه عثر عليها فوجدوا فيها جوهرا كبيرا ، ونشبا من نشب الملك خطيرا ، ووجد فى جملتها خاتم يحيى بن على بن حمود الأندلسى ، وخرج المعز بن سقوت حين وضح الفجر ، فلقيه المعز بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فطلب منه المال فقال له : ألخازن أبيك كنا نجمع المال ؟ فجلله بالحسام وحكم فيه الجمام تعالى من لا يرد قضاؤه ولا تبيد آلاؤه[٩٢] . وتم قتل المعز بهاء الدولة عام ٤٧٦هـ/١٠٨٣م ، وبذلك استولى المرابطن على سبتة[٩٣] .

وقبل أن ننتقل الى الحديث عن سبتة فى عصر المرابطين ، نرى أنه لابد أن نقف قليلا أمام فترة حكم سقوت البرغواطى وابنه المعز ، فقد كان كلا الرجلين موضع هجوم من قبل المؤرخين ، فقد وصف سقوت

---

(٩١) ابن بسام : الذخيرة : القسم الثانى . المجلد الثانى ص٦٦٢ ، ابن خلدون جـ٦ ص٢٢٢ .

(٩٢) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٥٦ — ٥٧ .

(٩٣) ابن بسام : الذخيرة . القسم الثانى . المجلد الثانى ص٦٦٢ .

بأنه أفعى جارية وشعلة وارية ، كما وصف ابنه الحاجب العز بأنه كان من أشد ملوك الطوائف أيدا وأمتنهم كيدا ، وأنه جاهر بالخلاف سماعا وعيانا [٩٤] . نقول ، برغم ذلك فقد شهدت مدينة سبتة في عهدها ازدهارا سياسيا وحضاريا لم تعهده من قبل، فقد أصبحت مركزه لدولة مستقلة اشتملت على القسم الشمالي من المغرب الأقصى ، كما شهدت سبتة في عهدهما رواجا ونشاطا اقتصاديا كبيرا ، هذا بالاضافة الى نهضة أدبية وفنية واضحة ، فقد كان سقوت البرغواطي محبا للعلم والعلماء ، ومما يروى في هذا الصدد أن أبا الوليد بن جهور أمير قرطبة وردت عليه عدة رسائل في يوم واحد : احداها من ابن صمادح صاحب ألمرية يطلب منه جارية عواده ، وأخرى من ابن عباد صاحب اشبيلية يطلب جارية زاهرة ، وثالثة من سقوت صاحب سبتة يطلب قارئا للقرآن ، فوجه ابن جهور من طلبه قرطبة رجلا يعرف بعون الله بن نوح الى سبتة ليقرأ القرآن بها . وقد أبدى ابن جهور تعجبه من ذلك وقال : جاهل يطلب قارئا وعلماء يطلبون أباطيل[٩٥] .

أما الحاجب العز بن سقوت فقد وصف ابن بسام اهتمامه بالأدب والأدباء بقوله : « ... وأفضت الدولة البرغواطية الى الحاجب العز ابنه شهاب أفلاكها ، وخيرة أملاكها ، هب للأدباء ريحا ونفحت دولته في أهله روحا ، أعرض به الشعراء وأطالوا ، ووجدوا السبيل الى المقال فقالوا .. وكان سهل الجانب للقصاد ، طلق اليد بالمواهب والأفراد »[٩٦] .

ويكفي سبتة فخرا أنه كان بها في هذه الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها ثلاثة أدباء تمنى المعتمد بن عباد أن يكونوا في بلاطه ،

---

(٩٤) نفس المصدر السابق ص٦٥٦ ــ ٦٥٧ .
(٩٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص٢٥٠ .
(٩٦) ابن بسام : المصدر السابق ص٦٦٢ .

فقد ذكر ياقوت الحموى أن المعتمد قال ذات مرة « ... اشتهيت أن يكون عندى من أهل سبتة ثلاثة نفر ، ابن غازى الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانه القاضى »[٩٧] . كما اشتمل بلاط سقوت وابنه العز على نفر من الأدباء نذكر منهم الشاعر أبو الحسن بن عبد الغنى الكفيف المعروف بالحصرى القيروانى[٩٨] ، والشاعر أبو ومحمد عبد الله بن القابلة السبتى[٩٩] .

سبتة فى عصر المرابطين :

يذكر المؤرخون أن المعز بن يوسف بن تاشفين بعد أن تمكن من دخول سبتة والاستيلاء عليها ، بعث الى والده — الذى كان مقيما بفاس — يخبره بانتصاره على المعز بن سقوت ودخول سبتة فى طاعة المرابطين ، وقد أحدث نبأ دخول سبتة فى طاعة المرابطين أثرا طيبا لدى يوسف بن تاشفين فخرج اليها من فوره « فهدنها وأصلح أحوالها وسفنها ولحقت به العساكر والجنود وقدمت عليه الوفود ، وأتاه من بلاد الصحراء والقبلة والزاب والمغرب القبائل والحشود »[١٠٠] ، كذلك حدث نفس الأثر لدى المعتمد بن عباد لأنه أدرك أنه لم يعد هناك ما يحول بين المرابطين وعبور المضيق لانقاذ الأندلس من العدو

---

(٩٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان . طبعة بيروت جـ٣ ص١٨٢ .

(٩٨) راجع ترجمة الحصرى القيروانى فى : ابن بسام : الذخيرة : القسم الرابع المجلد الأول ص٢٤٥ ، وما بعدها ، ابن بشكوال : كتاب الصلة . القاهرة ١٩٦٦ . القسم الثانى ص٤٣٢ ، ٤٣٣ ، الحميدى : جذوة المقتبس القاهرة ١٩٦٦ ص٣١٤ ، ٣١٥ .

(٩٩) راجع ترجمة ابن القابلة السبتى فى ابن سعيد المغربى : رايات المبرزين وغايات المميزين ، تحقيق الدكتور النعمان عبد المتعال القاضى . القاهرة ١٩٧٣ ص١٣٥ كذلك انظر ابن بسام : المصدر السابق القسم الرابع المجلد الأول ص٣٨٠ — ٣٨٢ .

(١٠٠) ابن ابى زرع : الانيس المطرب ، ص٩٣ .

المسيحى • وقد بادر المعتمد بعبور مضيق جبل طارق الى العدو المغربية لمقابلة يوسف بن تاشفين • وقد تقابل العاهلان فى موضع يسمى بليطة على بعد ثلاث مراحل من سبتة[١٠١] • وقد طلب يوسف بن تاشفين من المعتمد بن عباد تسليمه ثغر الجزيرة الخضراء كى يستطيع التحكم فى مضيق جبل طارق ويضمن سلامة قواته وخطوط مواصلاته بين العدوتين ذهابا وايابا ، وقد استجاب المعتمد لذلك وأمر ابنه الراضى يزيد باخلاء هذه المنطقة الجنوبية وتسليمها ليوسف بن تاشفين[١٠٢] • وفى ربيع الأول عام٤٧٩هـ/يونيو١٠٨٦م[١٠٣] عبرت الجيوش المرابطية من سبتة الى الجزيرة الخضراء ، ومنها انطلقت شمالا بغرب الى الزلاقه (شمال بطليوس) حيث أحرز المرابطون انتصارهم الرائع على قوى النصرانية بزعامة ألفونسو السادس ملك قشتالة وقد حدث ذلك كله فى نفس العام (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) •

هذا وقد اكتسبت سبتة أهمية استراتيجية — لما حفلت به — فى هذا الوقت ، اذ أصبحت الميناء الرئيسى الذى تعبر منه الجيوش المرابطية المتجهة الى الأندلس ، حيث عبر يوسف بن تاشفين منها الى الأندلس أربع مرات ، كما انطلق القائد المرابطى ابن الحاج من سبتة لجهاد نصارى شرق الأندلس عام ٤٩٥هـ /١٠٩٦م[١٠٣] • أيضا عبر على بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين مضيق جبل طارق الى الأندلس عن طريق ميناء سبتة عندما قام بحملتى عام ٥٠٠هـ / ١١٠٧م وعام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م • ونتيجة لذلك اهتم المرابطون بأمر سبتة اهتماما شديدا ، فقد أمر يوسف بن تاشفين ببناء سور الميناء السفلى على

---

(١٠١) نفس المصدر والصفحة ، السلاوى : الاستقصا : ج ٢ ص٣٤ •

(١٠٢) مؤلف مجهول : الحلل الموشية . تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة . الدار البيضاء ١٩٧٩ ص٥١ ، كذلك انظر : د. مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص٣٢٠ •

(١٠٣) ابن خلدون : العبر : ج٦ ص١٨٧ •

يد القاضى ابراهيم بن أحمد البصرى[١٠٤] كما رمم على بن يوسف بن تاشفين سور مدينة سبتة بعد أن أنفق ألفى دينار على هذا الترميم[١٠٥] أما أهم منشآت المرابطين الحربية فى مدينة سبتة : المرسى والطالع العظيم الذى بنوه ليشرف على كل حركة فى المضيق • وقد أوضح أبو القاسم السبتى الأنصارى أهمية هذا المحرس بقوله « ومنار الطالع الكبير ، الفذ النظير ، طالع سبتة الذى بأعلى جبل مبنائها المعروف عند الناس بالناظور ، ابتناه المرابطون هنالك للناظر الرانب ، به حصنا وبه قلهرة[١٠٦] كبيرة ، وبداخل القلهرة مسجد ، وكان ذلك على يد القاضى أبى الفضل عياض رحمة الله عليهم أجمعين • وهذا الطالع من أعجب الطلائع لكونه يكشف البرين ويشرف على العدوتين الى بادس من بلاد الريف والى طرف القسيس شرقا من مالقه والى ما وراء طريف غربا الى طرف سنار من بر الأندلس ، فلا يخفى عليه من الزقاق شى لكونه تحت أسوار وأبواب داخل المدينة ، وفى حكم أهلها اذ تقع فتنة أو يحصل حصار »[١٠٧] •

كما أشاد الوزير والأديب الغرناطى الشهير لسان الدين بن الخطيب بمنار سبتة الذى بناه المرابطون وذلك عند زيارته لمدينة سبتة فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، فيقول فى وصفه « والمنارة منارة

---

(١٠٤) ابن عذارى : البيان المغرب : ج٤ ص٥٨ .

(١٠٥) ابن القطان : نظم الجمان : ص١١٣ .

(١٠٦) القلهرة : (وجمعها قلهرات) Calahorra قلعة أوبرج أعلى ، وكانت هذه القلعة تستخدم أحيانا لخزن المواد الغائية لتوزيعها على الأهالى عند الحاجة او عند الحصار راجع :

Dozy : Supple ment aux dictionnaires arabes, Vol, 2, p: 409 .

(١٠٧) السبتى الأنصارى : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الاثار . نشر وتعليق محمد بن تاويت . مجلة تطوان . العدد ٣ — ٤ عامى ١٩٥٨ — ١٩٥٩ ص٨٣ ، ٨٤ .

شوارها ، كيف لا ترغب النفوس فى جوارها ، وتخيم بين أنجـادها وأغوارها »[١٠٨] .

وفضلا عن المنشآت الحربية ، فقد حرص المرابطون على تعيين ولاة أكفاء لمدينة سبتة كانوا من كبار القادة والأمراء . فعلى سبيل المثال وليها الأمير على بن يوسف بن تاشفين وبويع له بولاية العهد وهـو مقيم بسبتة[١٠٩] ، كما وليه القائد ابراهيم بن تعيشت فترة من الزمن ، وهـذا القـائد هو الذى أهـدى اليه الفتح بن خـاقان كتابه قلائد العقيان »[١١٠] .

ومن أهم الأحداث التى وقعت بسبتة خلال فترة حكم المرابطين نذكر الاضطراب الذى حل بها نتيجة لقيام رجل مشعوذ بريف سـبتة فى منطقة كركال ادعى أنـه الخضر ، وأن مجمع البحرين الوارد فى قصة سيدنا موسى انما هو مضيق جبل طارق ، وقد اتبعه عـدد كبير من عامة الناس ، واضطر والى سبتة الى القاء القبض عليه فى رمضان عام ٥٣٠هـ / سبتمبر ١١٢٦م حيث سيره الى مراكش فقتل وصـلب هناك[١١١] .

كما تعرضت سبتة فى نهاية عصر المرابطين لهجوم بحـرى كبير

---

(١٠٨) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب . مجموعة من رسائله جمعها ونشرها الدكتور احمد مختار العبادى . الاسكندرية ١٩٥٨ ص١٠١ .

(١٠٩) ابن ابى زرع : الأنيس المطرب ص١٠١ . ومن المعلوم أن الأمير على بن يوسف بن تاشفين ولد بمدينة سبتة عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م .

(١١٠) ابن القطان : نظم الجمان . ص٨٢ والهامش رقم ٥

(١١١) ابن عذارى : البيان المغرب ج٤ ص٧٤ — ٧٥ .

قام به غزاة الشمال أو الفايكنج[١١٢] اذ يذكر ابن عذارى أنه فى عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣م « وصلت قراقر[١١٣] المجوس[١١٤] فى مائة وخمسين مركب بين كبار وصغار الى سبتة ، فخرجت أجفانها فتقاتلوا فقتل من الفريقين خلق كثير »[١١٥] . وقد تولى القائد المرابطى أبو عبد الله محمد بن ميمون (من أسرة بنى ميمون الشهيرة) قيادة أسطول سبتة والدفاع عن المدينة . وعلى الرغم من أن ابن عذارى لم يوضح لنا نتيجة هذه الغارة البحرية ، الا أنه يبدو أن هؤلاء الغزاة لم يتمكنوا من النزول بسبتة نظرا للمقاومة الشديدة التى واجهتهم من قبل أسطول سبتة ، ويبدو أن هؤلاء الغزاة اضطروا الى العودة الى بلادهم بعد فشل غارتهم على مدينة سبتة .

سبتة فى عصر الموحدين ،

لم تخلد سبتة فى يد المرابطين ، اذ ظهر منافس قوى لهم وهو الموحدون الذين استطاعوا أن يخلفوا المرابطين فى حكم بلاد المغرب

---

(١١٢) الفايكنج أو غزاة الشمال : Vikings هم مجموعة الشعوب التى سكنت شبه جزيرة اسكندناوه وهم شعب تيوتونى أو جرمانى ينقسمون الى ثلاث مجموعات : السويديون ، النرويجيون الدانمركيون ، والمجموعة الأخيرة هى التى هاجمت سبتة ، كما سبق أن هاجمت بلاد الأندلس على عهد الأمير عبد الرحمن الاوسط (٢٠٦ — ٢٣٨هـ / ٨٢٢ — ٨٥٢م) . راجع : محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى . الاسكندرية ١٩٩٠ ص٢٩٣ .

(١١٣) قراقر : جمع قرقورة وهى سفينة عظيمة تحمل الزاد والكراع، وقيل ان اسمها مشتق من الكلمة الاسبانية Carraca راجع : درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، الاسكندرية ١٩٧٤ ص ١٢٠ .

(١١٤) أطلق العرب اسم المجوس على هؤلاء الغزاة لأنهم كانوا يشعلون النار فى كل مكان يحلون فيه ، بل كانوا يحرقون جثث موتاهم بسفنهم ، فظن العرب أنهم يعبدون النار كالزرداشتية او المجوس . راجع : د. مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ص٣٤٨ .

(١١٥) ابن عذارى : البيان المغرب : جـ٤ ص١٠٣ .

والأندلس . ومن المعلوم أن دولة الموحدين قامت على أساس دعوة دينية اصلاحية طابعها التجديد والعظمة وهدفها تحقيق وحدة اسلامية شاملة[١١٦] ، ولهذا حرص الموحدون على ضم المناطق التى كانت تحت سيطرة المرابطين سواء فى المغرب أو الأندلس ، وكانت مدينة سبتة من أهم المناطق التى حرصوا على الاستيلاء عليها باعتبارها معبرا ومجازا لجيوشهم الى الأندلس . وقد حاول عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين الاستيلاء عليها أثناء صراعه مع المرابطين عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م ، فقد وصلت الجيوش الموحدية الى ريف سبتة ولكنها لم تتمكن من اقتحامها[١١٧] . ثم حاول الموحدون مرة أخرى اقتحام سبتة حيث حاصرها عبد المؤمن فامتنعت عليه « وتولى كبر دفاعه عنها القاضى عياض الشهير الذكر كان رئيسها يومذ بدينه وأبوته ومنصبه »[١١٨]. ولكن سبتة لم تصمد طويلا ، لأن مصرع تاشفين بن على بن يوسف أمير المرابطين وسقوط دولتهم على يد الموحدين دفع أهل سبتة الى اعلان طاعتهم للموحدين ، فقد أوفد أهل سبتة قاضيهم أبا الفضل عياض الى عبد المؤمن بن على ليعلن له دخول سبتة فى طاته ومبايعة أهلها له ، حيث التقى به بالقرب من سلا وذلك عام ٥٤٠ هـ /١١٤٥م . وقد قبل عبدالمؤمن بيعتهم وبعث معهم يوسف بن مخلوف التينملل من مشيخة هنتاتة واليا عليهم[١١٩] . ولكن لم يلبث أهل سبتة أن خلعوا طاعة الموحدين فى العام التالى (٥٤١ هـ) ، فقد انتهزوا فرصة انشغال عبد المؤمن بن على باخماد ثورة الداعى محمد بن عبد الله بن هود

---

(١١٦) د. مختار العبادى : دراسات ص١٠٤ ، ومن المعروف أن مؤسس هذه الدعوة هو الفقيه محمد بن تومرت .

(١١٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٤ ص٩٩ .

(١١٨) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٣٠ .

(١١٩) ابن عذارى : المصدر السابق . قسم الموحدين . نشر محمد ابن تاويت وآخرون . الدار البيضاء ١٩٨٥ . ص٢٤ ، ص٢٦ ، المقرى : ازهار الرياض فى أخبار عياض . نشر عبد الحفيظ شلبى وآخرون : القاهرة ١٩٤٢ جـ١ ص٢٣ ، ٢٤ .

الماسى[١٢٠] (نسبة الى رباط ماسة فى ساحل المحيط بالقرب من سلا) وأعلنوا خلعهم لطاعة الموحدين • ويذكر ابن عذارى أن سبب تلك الثورة هو ما اشيع أن والى المدينة الموحدى يوسف بن مخلوف قرر قتل قتل قاضى المدينه ابى الفضل عياض[١٢١] للذى يبدو انه لم يكن مخلصا للدعوة الموحدية • وقد بدأت أحداث هذه الثورة عندما قام أهل سبتة بالقاء القبض على من كان بقصبة المدينة من الموحدين ، وأشعلوا النيران فى البرج الذى تحصن فيه بقية الجنود الموحدين ثم صلبوهم • وقام القاضى عياض بعبور المضيق الى الأندلس حيث التقى مع يحيى بن على بن غانية المسوفى فى الجزيرة الخضراء وطلب منه أن يرسل واليا من قبله الى سبتة ، فبعث معه يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين الملقب بالصحراوى أو ابن الصحراوية[١٢٢] • وازاء هذه التطورات ، أرسل الخليفة الموحدى عبد المؤمن الى قائد البحر أبى الحسن على ابن عيسى بن ميمون[١٢٣] يأمره بحصار سبتة بحرا والقضاء على ابن

---

(١٢٠) عن ثورة ابن هود الماسى السلاوى ، راجع مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة . الدار البيضاء ١٩٧٩ ص١٤٦ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٣٣ .

(١٢١) ابن عذارى : البيان المغرب . قسم الموحدين ص٣٢ .

(١٢٢) ابن عذارى : البيان قسم الموحدين ص٣٢ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٣٣ ، وقد برر السلاوى خلع القاضى عياض طاعة الموحدين والدعوة لابن غانية بالقول بأن القاضى عياض عاد الى طاعة المرابطين لان لهم الحق فى الامامة بطريق الأصالة ، هذا مع ما كان ينقل عن المهدى من انه غلبت عليه نزعة خارجية وانه يقول بعصمة الامام وذلك بدعة ، فتكون امامته وامامة اتباعه مقدوحا فيها من هذه الحيثية ، ولكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجب الطاعة . راجع : السلاوى : الاستقصا جـ٢ ص١١٤ ، ١١٥ .

(١٢٣) هو القائد ابو الحسن على بن عيسى بن ميمون ، ينتمى الى اسرة بنى ميمون الشهيرة فى قيادة البحر وأصلهم من الأندلس ، وان اختلف المؤرخون فى تحديد المدينة التى نشأوا فيها فالبعض يذكر انهم من المرية ، والبعض الآخر يرى انهم من دانية ، وهناك من يرى انهم من قادس .

الصحراوية واعادة سبتة الى طاعة الموحدين • وقد حاصر ابن ميمون سبتة حصارا شديدا ، فخرج اليه ابن الصحراوية وقال له : أريد أن يكون توحيدى على يديك يا أبا الحسن ، فقال له : نعم ، أحملك الى الخليفة • ولما أنس له هبط على بن عيسى من الغراب وأراد الجلوس معه ، فرأى فى وجهه الغضب ، فأراد أن يرجع الى الغراب فرمى عليه يحيى حصانة وضربه بالنصل فوصل بين الكتفين حتى نفذه وأخذه غلام الصحراوى فجرد الى سبتة ثم صلبه فى برج المدينة[١٢٤] • ولم يكتف ابن الصحراوية باغتيال قائد البحر على بن عيسى بن ميمون ، بل عمد الى التحالف مع أعداء الموحدين وخاصة قبائل برغواطة ودكاله التى لم تكن قد خضعت للموحدين حتى ذلك الوقت ، كذلك انضمت اليه قبائل رجراجة وحاحة • ولذلك بعث الخليفة الموحدى عبد المؤمن جيوشه للقضاء على تلك الفتن ، وتمكن فى نهاية الأمر من اخضاع كل هؤلاء الثائرين والخارجين عليه ، كما طلب ابن الصحراوية الأمان من الخليفة الموحدى فأمنه ودخل فى طاعة الموحددين • أما أهل سبتة فقد اضطروا الى اعادة الدعوة للموحدين خاصة بعد أن حاصر الجيش الموحدى تحت قيادة يصلاسن بن المعز الهرغى مدينتهم ، وقد كتب أهل سبتة الى عبد المؤمن بن على مرة أخرى يعلنون له توبتهم ودخولهم فى طاعته ، « فعفا عنهم وعن القاضى عياض وأمره بسكنى مراكش وأمر بهدم سور مدينة سبتة فهدم »[١٢٥] • وقد عين عبد المؤمن القائد أبا محمد عبد الله بن سليمان التينملل واليا على سبتة وأرسل معه

ويذكر الدكتور مختار العبادى اننا لو انصفنا هذه الاسرة المجاهدة لجعلنا البحر وطنا لهم . راجع : مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص٣٢١ ، ٣٢٢ .

(١٢٤) راجع : البيذق : كتاب اخبار المهدى بن تومرت . تحقيق عبد الحميد حاجيات . الجزائر ١٩٧٤ ص١٢٢ ، ١٢٣ .

(١٢٥) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص١٢٤ .

مجموعة من الطلبة الحفاظ[١٢٦] وذلك عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م .

يعد أن استقرت الأمور للموحدين في سبتة ، أصبحت من أهم ولاياتهم في المغرب ، ومما يدل على ذلك ان الخليفة عبد المؤمن زارها في نفس العام الذي عادت فيه لطاعة الموحدين (٥٤٣ هـ) ليكون قريبا من الأندلس ويتعرف على أحوالها . كما زارها مرة أخرى عام ٥٤٦هـ بعد أن أشاع أنه يريد العبور الى الأندلس للجهاد في حين أنه كان يريد التوجه الى المغرب الأوسط لاخضاع الثائرين هناك[١٢٧] . ومن مظاهر اهتمام الموحدين بمدينة سبتة أن والي المدينة كان شخصية بارزة في المجتمع الموحدي ، فقد وليها السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن على عام ٥٤٩هـ بأمر من والده[١٢٨] ، الذي أضاف اليه بعد ذلك ولاية غرناطة حينما خضعت للموحدين عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م ، بحيث أصبح والي سبتة يتولى أيضا أمور غرناطة[١٢٩] . ومع أن هذا الأمر لم يستمر طويلا ، الا أنه يدل على مدى أهمية سبتة عند الموحدين .

---

(١٢٦) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ص١٢٦ — ابن القطان : نظم الجمان ص١٤٨ والهامش رقم ٥ .

(١٢٧) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٣٥ .

(١٢٨) ابن القطان : المصدر السابق ص١٧١ ، ابن أبي زرع : المصدر السابق : ص١٢٦ .

(١٢٩) ابن عذارى : البيان المغرب (قسم الموحدين) ص٥٥ ، ومن المعلوم أن الموحدين قسموا البلاد الخاضعة لهم في المغرب والاندلس الى ولايات يتولى حكمها أبناء الخلفاء (السادة) ، وكانت هذه الولايات أو الامارات تقسم الى دوائر لكل دائرة حاكمها أو قاضيها الخاص . وكانت ولاية غرناطة تشتمل على دوائر المرية ووادي آش والمنكب . أما ولاية سبتة فتشمل على مدينة سبتة وطنجة وسائر بلاد غمارة . وكما ذكرنا في المتن لم تستمر عملية الجمع بين ولايتي سبتة وغرناطة للسيد أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن فترة طويلة حيث اقتصر حكم السيد أبي سعيد على ولاية غرناطة ودوائرها فقط . راجع : يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، القاهرة ١٩٤١ جـ٢ ص٢٤٨ ، ٢٤٩ . (ترجمة محمد عبد الله عنان) .

وفضلا عن ذلك فقد تحولت مدينة فى عهد الموحدين من مجرد معبر الى الأندلس الى ميناء تجارى كبير ، وأضحى من يريد التوجه الى المشرق من أهل الأندلس يهرع الى سبتة ليركب السفن منها[١٣٠] . كما أن غالبية التجار الأوربيين الذين يتجارون فى السواحل المغربية كان لابد لهم من النزول أولا بميناء سبتة[١٣١] . كذلك فقد أصبحت سبتة قاعدة من قواعد الأسطول الموحدى ومركزا من مراكز صناعة السفن فى العصر الموحدى ، وقد أشار ابن أبى زرع الى أن الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على أمر فى عام ٥٥٧هـ / ١١٦٢م بانشاء عدة قطع للاسطول الموحدى فى مختلف دور الصناعة فأنتجت دار صناعة سبتة وبادس ومراسى الريف مائة قطعة[١٣٢] . كما أمر الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ — ٥٦٠ هـ / ١١٦٣ — ١١٨٤ م) بأن يجلب لسبتة الماء العذب من قرية بليونش التى تبعد عن سبتة ستة أميال فقط ، وشرع فى حفر قناة تحت الأرض لهذا الغرض ولكن بعض الصعاب الفنية — فيما يبدو — حالت دون اتمام المشروع فأهمل[١٣٣] .

كما شارك أسطول سبتة فى المعارك البحرية التى دارت بين الأسطول الموحدى وأسطول مملكة البرتغال ، فقد ولى الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف أمير البحر غانم بن مردنيش قيادة أسطول سبتة ، فأغار على مدينة لشبونة عاصمة البرتغاليين وتغلب على قطعتين من قطع الأسطول البرتغالى كانت راسية هناك ، ثم عاد

---

(١٣٠) عز الدين موسى : النشاط الاقتصادى فى بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجرى . القاهرة ١٩٨٣ ص٣٢٠ .

(131) H.C. Krueger : Genoese trade Wtih north Africa in the twelfth Century. Revue : Speculum, 1933, Vol, VII, No. 3, p. 381.

(١٣٢) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب : ص١٣١ .

(١٣٣) الحميرى : الروض المعطار : ص١٠٣ . وعن قرية بليونش راجع : مؤلف مجهول : الاستبصار ص١٣٨ وكذلك ،

L.T. Balbas : Las ruinas de Belyùnes O Bullones, Revista Tamuda, ano IV, Tetuan, 1957. p. 277 Y Sig.

بهما الى سبتة وذلك عام ٥٧٥هـ / ١١٧٩م[١٣٤] • وفى العام التالى (٥٧٦هـ) خرج أسطول سبتة بقيادة غانم بن مردنيس وأخوه أبوالعلا وهاجم السواحل البرتغالية ، بيد أن أمير البحر البرتغالى فواس روبينهو Fouas Roupinho تمكن من الحاق الهزيمة بأسطول سبتة وقتل عددا كبيرا من أفراده ، فى حين أسر القائد غانم وأخوه أبو العلا، كما استولى البرتغاليون على تسع قطع من مراكب المسلمين بمن عليها من الموحدين وانصرفوا الى لشبونة[١٣٥] • ونتيجة لهذا الانتصار الذى أحرزه أسطول البرتغاليين ، شن القائد البرتغالى فواس روبينهو هجوما عنيفا على السواحل المغربية ومن ضمنها سبتة • وقد رد الموحدون على هذا الهجوم بشن هجوم مضاد عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م حينما خرج القائد عبد الله بن جامع قائد أسطل سبتة (كان قد تولى أمر قيادة أسطول سبتة عقب أسر غانم بن مردنيش) مع القائد أبى العباس الصقلى قائد أسطول اشبيليه وتجمعوا بجزيرة قادس ثم شنوا هجوما عنيفا على الأسطول البرتغالى عدد مدينة شلب Silves فى منتصف المجرم عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م • وقد أحرز المسلمون نصرا مبينا واستولوا على عدد من قطع الاسطول البرتغالى عادوا بها الى سبتة ، وتشير المصادر البرتغالية الى أن أمير البحر البرتغالى روبينهو قد لقى مصرعه فى هذه المعركة[١٣٦] •

وقد ظلت سبتة منذ النصف الثانى من القرن السادس الهجرى

---

(١٣٤) ابن عذارى : البيان المغرب قسم الموحدين ص١٤٠ ، السلاوى الاستقصا جـ٢ ص١٥٢ .

(١٣٥) نفس المصدر السابق ص١٤٣ ، كذلك انظر :

A. Huici Miranda : Historia Politica del Imperio Almohade, *Tetuan, 1957, pp. 279 - 281.*

(١٣٦) ابن عذارى : المصدر السابق ص١٤٥ .
Huici Miranda : op. cit. p. 280.
كذلك انظر : مختار العبادى : دراسات ص٥٣٥ .

وحتى نهايته تؤدى دورها كمعبر ومجاز للجيوش الموحدية المتجهة للاندلس للجهاد ، وقاعدة بحرية تنطلق منها الأساطيل الموحدية للاغارة على أساطيل وموانىء الاعداء . ولم تخرج عن طاعة الموحدين الا فترة بسيطة عام ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م عندما تمكن محمد بن على بن يحيى المسوفى المعروف بابن غانية من الاستيلاء عليها ودعا فيها للخليفة العباسى الناصر [١٣٧] (٥٧٥ — ٦٢٢هـ / ١١٧٩ — ١٢٢٥م) . بيد أن الموحدين سرعان ما استردوا سبتة من يد ابن غانية ، وظلت تحت سيطرتهم حتى ثار واليها السيد أبوعمران موسى بن المنصور على أخيه أبى العلاء ادريس الملقب بالمأمون وذلك عام ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م . وقد حاصر المأمون سبتة ولكنه لم يظفر منها بطائل ، واضطر الى ترك حصارها عندما علم أن ابن أخيه يحيى بن الناصر هاجم مدينة مراكش — عاصمة الموحدين — يريد الاستيلاء عليها وخلع عمه من الخلافة[١٣٨] .

ولم يجد أبو عمران موسى وسيلة للتخلص من الضغط الموحدى الا العبور الى الاندلس حيث عرض على أبى عبد الله محمد بن هود الجذامى صاحب مرسية وشرق الأندلس (والثائر هو لاخر على الموحدين) الدخول فى طاعته ، وتنازل له عن مدينة سبتة ، وفى المقابل ولاه ابن هود مدينة ألمرية ، وهكذا دخلت سبتة فى طاعة ابن هود[١٣٩] .

---

(١٣٧) ابن خلدون : العبر : جـ٦ ص٢٤٨ .

(١٣٨) ابن عذارى : البيان — قسم الموحدين ص٢٩٨ ، ابن ابي زرع : الأنيس المطرب ص١٦٩ .

(١٣٩) ابن خلدون : جـ٤ ص١٦٩ ، جـ٦ ص٢٥٤ ، السلاوى : الاستقصا : جـ٢ ص٢٤٠ .

سـبتة فى ظل قيادات جـديدة :

ولى ابن هود على سبتة شخصية طريفة معمرة هى شخصية المقدم الغشتى ، وهذا الرجل — كما وصفه ابن عذارى — كان فى الأصل صعلوكا حوانا (أى قاطع طريق) وتحت يديه جماعة كبيرة من أراذل الناس ، وقد عاون ابن هود فى كثير من غزواته ، فكافأه بأن ولاه قيادة أسطول الأندلس وأسطول سبتة بالاضافة الى تعيينه واليا على مدينة سبتة « فلما علا سعده وكمل ، قام عليه أهل سبته وأرادوا قتله ، ففر أمامهم وخفى أثره الى أن تحقق بعد ذلك خبره ، فقيل أنه دخل فى زورق صغير ليهرب به الى الأندلس أمام أهل سبتة فحمل فى يد العدو أسيرا فحمل الى جهة غرب الاندلس »(١٤٠) .

وعقب فرار المقدم الغشتى من سبتة ، ولى أهل سبتة على أنفسهم أحد كبار تجار المدينة وذوى المروءة واليسار بها وهو الحاج أبا العباس أحمد بن محمد اليانشتى(١٤١) وذلك عام ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م ، فأحكم قبضته على سبتة ، ودعى بالموفق بالله(١٤٢) . وقد أشاد المؤرخون بحزمه وحكمته ودفاعه عن المدينة ، فابن عذارى(١٤٣) . يذكر أنه قام بأمر سبتة خير قيام ، أما الحميرى(١٤٤) فيقول عنه « وما زال أمره

---

(١٤٠) ابن عذارى : البيان المغرب . قسم الموحدين ص٢٧٧ — ٢٧٨ . وقد قضى المقدم الغشتى فى الأسر أعواما كثيرة ، ثم ترك الأندلس فى شيخوخته ومات برباط آسفى على ساحل المحيط الأطلسى بالمغرب . راجع ايضا : ابن الخطيب اعمال الاعلام (نشر بروفنسال) ص ٢٧٩ ، العبادى : دراسات ص٣٧١ ، ٣٧٢ .

(١٤١) نسبة الى حصن ينشتة Iniesta على بعد مرحلتين من جنجالة شمال مرسية . راجع : الحميرى : الروض المعطار ص٦٢٢ .

(١٤٢) ابن عذارى : المصدر السابق ص٢٩٤ ، ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص١٨٢ ، المقرى : نفح الطيب ج٣ ص٣٠٩ .

(١٤٣) البيان المغرب : ص٣٤٤ (قسم الموحدين) .

(١٤٤) الروض المعطار : ص٦٢٢ .

مستقيما برا وبحرا يخاف ويرجى ويقصد وتخطبه الملوك من البلاد ».
على أن أهم الاحداث التي وقعت خلال الفترة التي استقل فيها اليانشتي بامر سبتة ، تعرض المدينة لهجوم كبيرشنة الجنويون بغية فصل المغرب عن الأندلس والتحكم في منطقة مضيق جبل طارق ، على أساس أن من يملك ثغر سبتة يتحكم في منطقة المضيق . وبدأ هجوم الجنوية عام ٦٣٣هـ/١٣٤م بوصول أعداد كبيرة من سفنهم الى ميناء المدينة ، فنزلوا الى الشاطىء وادعوا أنهم حضرو للتجارة(١٤٥) . وقد تولى قيادة هذه الحملة الجنوية اثنان من كبار قادة البحر الجنوبيين وهما : القائد فيليلموذى نجرونى Vilielmo di Negrone وبلدوينو اسبينو Bolduino Spiono ، وتشير الحوليات الجنوية الى أن الجنويين قد حملوا معهم أعدادا كبيرة من الصلبان مما يوحى بصبغة صليبية لهذه الحملة(١٤٦) . وقد قام الجنويون بضرب أسوار المدينة بالمنجنيقات فأحدثوا بها أضرارا شديدة . ولمواجهة هذا الموقف أسرع الحاج أبو العباس اليانشتي بالاستنجاد بالقبائل المجاورة لسبتة ، واتفق معهم على شن هجوم مباغت على القوات الجنوية . وقد أخفى الحاج اليانشتي توقيت هذا الهجوم حتى يتحقق عنصر المفاجأة . وفي اليوم المحدد للهجوم الاسلامي خرج أبو الحسن بن الحاج اليانشتي من المدينة واشتبك مع الجنويين في قتال عنيف حتى كاد أن يستولى الجنوية على باب المدينة وينفذون اليها . ولكن وصول القبائل البربرية التي استنجد بها اليانشتي قد قلب الموازين لصالح أهل سبتة ، وتمكن المسلمون من

---

(١٤٥) ابن عذارى : المصدر السابق ص٣٥٠ ، ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص١٨٣ ، السلاوى : الاستقصا جـ٢ ص٢٤٤ .

(146) Maestre Bartolomeo : CF. Annali Genovesi di Caffaro e dei Suoi continualori, Genova, 1928, Vol. IV, p. 121.

ولا يفوتنى هنا أن اقدم شكرى وامتنانى للزميل الدكتور / مصطفى حسن الكنانى الذى تفضل باعارتى الجزء الرابع من الحوليات الجنوية ، كما عاونني في ترجمة النص من اللغة الايطالية الى العربية .

قتل عدد كبير من الجنوية « فقتل النصارى فى ذلك اليوم قتلا ذريعا وقطعوا تقطيعا ، وتحكمت السيوف والرماح من كل مفرق لهم ونحر ، ومن سلم من القتل رمى بنفسه عائما الى الأجفان فى البحر[١٤٧] ، وتضيف الحوليات الجنوية أن أسطول سبتة هاجم الأسطول الجنوى وتمكن من تدمير احدى قطعه[١٤٨] ، واضطر الجنويون الى الفرار بعد أن ذبح معظمهم ونهبت أموالهم وفنادقهم التى بالمدينة .

لكن الجنوية عاودوا الهجوم مرة أخرى على المدينة فى العام التالى أى عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٤م [١٤٩] بأسطول قوى بلغ حوالى مائة مركب كما يذكر ابن عذارى[١٥٠] .أما الحوليات الجنوية فتشير الى أن حاكم جنوة أرسل أسطولا تكون من اثنين وعشرين تحت قيادة أمير البحر انيونى دى بونيفتشودى لأفولتا Ingone di Bonfacio dell volta واربع شوانى تحت قيادة لان فرانكوا اسبينولا Lan Franco Spionola بالاضافة الى عشر شوانى أخرى تحت قيادة أوتو بونودى كاميلا Otto Bono di Camilla وتولى القيادة العامة لهذا الأسطول القائد انيونى[١٥١] . وقد حاصر هذا الأسطول سبتة وضربها بالمنجنيقات

---

(١٤٧) ابن عذارى : المصدر السابق ص٣٥٠.

Maestre Bartolomeo : op. cit., p. 121.

(١٤٩) أشار ابن عذارى ان هجوم الجنوية تم عام ٦٣٣ هـ ثم عاد وقال انه فى عام ٦٣٦هـ . وقد ذكر الدكتور مختار العبادى أن الراى الغالب كتاريخ لهذه الحملة هو عام ٦٣٦هـ . بيد أن التاريخ الذى حدده ابن عذارى أولا وهو عام ٦٣٣ هو الأصح من وجهة نظرنا . ودليلنا على ذلك أن هذا التاريخ (٦٣٣هـ) ورد عند ابن أبى زرع (الأنيس المطرب ص ١٨٣) والسلاوى الاستقصا جـ٢ ص٢٤٤ ، كما أن الحوليات الجنوية ذكرت أن هجوم الأسطول الجنوى على سبتة تم عام ١٢٣٤ وهذا التاريخ يقابل عامى ٦٣٢ ، ٦٣٣هـ . راجع : مختار العبادى : دراسات ص٣٧٤ والهامش رقم ٢ .

(١٥٠) ابن عذارى : المصدر السابق ص٣٥٠ .

(١٥٠) ابن عذارى : المصدر السابق ص٣٥٠ .

(151) Maestre Bartoloneo : op. cit., p. 122.

وآلات الحصار ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحام المدينة ، واضطر الجنوية فى نهاية الأمر الى الرجيل عن المدينة بعد أن دفع لهم اليانشتى أربعمائة ألف دينار تعويضا لهم عن بعض خسائرهم[١٥٢] .

وعلى الرغم من الجهد الكبير الذى بذله الحاج اليانشتى فى الدفاع عن سبته ، الا أنه لم يستمر حاكما عليها أكثر من عامين عقب غزوة الجنوية ، فقد دس الموحدون أحد عملائهم ويسمى ابراهيم ابن مسعود الكومى على الحاج اليانشتى ، وتظاهر هذا الرجل بالزهد وأخذ يتقرب الى اليانشتى حتى ملك لبه . وفى نفس الوقت كان ابن مسعود يتصل سرا بأعداء اليانشتى فى المدينة ويخطط معهم لاعادة السيادة الموحدية على سبتة . وبالفعل نجح هذا الرجل فى مسعاه حيث أتى الى سبتة ومعه جيش كبير من قبل الخليفة الرشيد الموحدى وهاجم المدينة ، فخرج اليه الحاج اليانشتى مع عدد قليل من الجند الموالين له وعامة أهل سبتة « فحمل عليهم الجيش المراكشى حملة فقد فيها من السبتيين نحو ستمائة وتخاذل الباقون فملك عليهم البلد »[١٥٣] ، وقد خشى أهل سبتة من انتقام الرشيد الموحدى فانتهزوا فرصة وصول بنى حجاج اللخميين الى سبتة ، قادمين اليها من الأندلس ومتجهين الى مراكش لاعلان بيعتهم للرشيد الموحدى ، وبعثوا معهم وفدا من وجوه المدينة وأعيانها برئاسة الشيخ البطرنى وذلك عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٧[١٥٤] . أما الحاج اليانشتى فقد قبض عليه

---

(١٥٢) ابن عذارى : المصدر السابق ونفس الصفحة ، ابن ابى زرع : الأنيس المطرب ص١٨٣ ،

Maestre Bartolomeo : op. cit., p. 123.

كذلك انظر : مختارى العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية جـ٢ ص٢٨٦ .

(١٥٣) الحميرى : الروض المعطار ص٦٢٢ .

(١٥٤) ابن ابى زرع : المصدر السابق ص١٧١ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٥٦ .

هو وأحد أولاده[١٥٥] وجماعة من أهل سبتة ممن يخشى بأسهم وأرسلوا جميعا الى مراكش حيث توفوا هناك نتيجة للوباء الذى اجتاح مراكش فى ذلك الوقت[١٥٦] . وقد ولى الرشيد على سبتة القائد أبا على بن خلاص البلنسى[١٥٧] ، وعلى دار صناعتها أبا زكريا بن مزاحم الكومى وذلك عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م .

استمرت سبتة تابعة للموحدين حتى توفى الرشيد الموحدى عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ، فانتهز واليها أبو على بن خلاص الفرصة وأعلن عدم اعترافه بالخليفة الموحدى الجديد السعيد بن المأمون ، ولكى يأمن بطش الموحدين بعث بيعته الى الأمير الحفصى أبى زكريا يحيى (٦٢٧ — ٦٤٧هـ / ١٢٣٠ — ١٢٤٩م) وذلك عام ٦٤٠هـ . ثم جدد البيعة عام ٦٤٣هـ وبعث بهدية الى الحفصيين مع ولده على متن غراب جديد أنشأه لهذا الغرض ، ولكن هذه الهدية لم تصل للأمير الحفصى أبى زكريا حيث تعرض الغراب للغرق عند اقلاعه من مرسى سبتة . وهكذا صارت سبتة تابعة للحفصيين ، ولكى يؤكد أبو زكريا الحفصى سلطته عليها ، بعث عددا من الأجفان التونسية الى ميناء سبتة وتم عزل ابن خلاص البلنسى[١٥٨] وتولى أمرها أحد القادة الحفصيين وهو القائد أبو زكريا

---

(١٥٥) كان للحاج اليانشتى ولدان : الأكبر وهو محمد تمكن من الفرار فى البحر الى بجاية حيث حبس بها فترة ثم سار الى الاسكندرية ومنها رحل الى اليمن . أما الأصغر فهو الذى سار مع أبيه أسيرا الى مراكش .

(١٥٦) ابن عذارى : البيان المغرب . قسم الموحدين . ص٣٤٥ — الحميرى : الروض المعطار ص٦٢٢ .

(١٥٧) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٥٦ .

(١٥٨) يذكر ابن خلدون أن أبا على بن خلاص قد غادر سبتة فى طريقه الى تونس ، ولكنه توفى ببجاية عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م ، العبر جـ٧ ص ١٨٦ .

يحيى ابن أبى بكر بن الشهيد الهنتاتى[١٥٩] ، فى حين تولى خطة الأشغال[١٦٠] بها ابن أبى خالد ، أما أسطول سبتة فأسندت قيادته للقائد أبى العباس الرانداحى[١٦١] .

ولكن لم تستمر الدعوة الحفصية فى سبتة فترة طويلة ، فقد أساء كل من ابن الشهيد الهنتاتى والى المدينة وابن أبى خالد صاحب الاشغال السيرة مع أهل سبتة ووجوهها وأعيانها ، فاتفق قائد البحر أبو العباس الرنداحى مع الفقيه أبى القاسم العزفى على الثورة ضد السيادة الحفصية . ويمدنا ابن عذارى بتفصيلات هامة عن هذه الثورة فيقول « ... وضاق أهل سبتة غاية التضييق من جور ابن أبى خالد وتغافل ابن الشهيد ، فاجتمع القائد الرنداحى مع الفقيه المعظم أبى العباس فحرضه على القيام بأمر بلده وأن يعينه على ذلك بعده وعدده والتزم له أن يقوم بالأمر حتى يخلصه فوافقه على ذلك »[١٦٢] وكانت

---

(١٥٩) هو أحد أبناء أبى يحيى أبى بكر بن أبى حفص عمر الهنتاتى ، وقد سمى أبناؤه بأبناء الشهيد لأن أبا يحيى استشهد فى معركة الارك الشهيرة Alarcos عام ٥٩١ هـ / ١١٩٥م .

(١٦٠) صاحب الأشغال : (أو كاتب الاشغال) هو الذى يتولى الامور المالية فى الدولة من حسابات العطاء والخراج ، كما يتولى ديوان الجيش ويشرف على احصاء الجنود بأسمائهم وتقدير ارزاقهم وصرف اعطياتهم . وهو شبه وزير المالية حاليا . ومن الطريف أن وزير المالية فى اسبانيا حتى الآن سمى Ministerio de Haciendo أى وزير الأشغال . راجع : ابن خلدون : المقدمة . طبع بيروت ١٩٠٠ ص٢٤٥ .

(١٦١) ينتسب هذا القائد الى بنت بنى الرنداحى فى المرية الذين اشتهروا كقادة مهرة تولوا قيادة الاساطيل الاندلسية والمغربية . وقد استمرت هذه القيادة فيهم منذ أواخر أيام الموحدين حتى منتصف القرن الثامن الهجرى ، حيث عملوا عند كل من بنى نصر (أو بنى الاحمر) سلاطين غرناطة وعند بنى مرين حكام فاس . راجع : مختارى العبادى : دراسات : ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

(١٦٢) ابن عذارى : البيان المغرب . قسم الموحدين ص ٣٩٧ — ٣٩٨ .

الخطة تقضى بأن يقوم أبو العباس الرنداحى بعمل وليمة فاخرة في داره يدعو اليها جميع قادة أسطول سبتة والرماه والغزاه ، وفى نفس الوقت بعث القائد الرنداحى رجاله الى القادة والأجناد الأندلسيين الذين سبق أن نزلوا الى سبتة ، فقتلوهم جميعا • ثم أذاع الخبر على أهل سبتة فخرجوا من ديارهم وتجمعوا مطالبين برأس أبى خالد لشدة جورة عليهم ، وبالفعل قتل ابن أبى خالد وقطعت رأسه وعلقت على سور المدينة •

أما ابن الشهيد والى سبتة فقد نفى الى الأندلس ، حيث رحل منها بعد ذلك الى تونس • وتم تعيين أبى القاسم العزفى حاكما على سبتة• وفى البداية خطب العزفى للخليفة الموحدى عمر المرتضى ، ثم استقل بأمر سبتة فترة من الوقت حتى خضعت سبتة لطاعة بنى مرين(١٦٣) •

---

(١٦٣) ابن خلدون : جـ٦ ص٢٨٠ •